# الفصل الأول

# نشأة الفقيد والعصر الذي ظهر فيه

# نشأته العائلية

obeikandl.com

ولد مصطفى كامل بمدينة القاهرة بحي (الصليبة) بقسم الخليفة يوم ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٤ م (أول رجب سنة ١٢٩١هـ)، وهو ابن (على أفندي محمد) أحد خيار المهندسين الضباط.

## والد المترجم

نشأ (على أفندي محمد) في بلدة كتامة الغاب من أعمال مركز طنطا عاصمة الغربية، إذ كان والده من تجارها، ودخل فيمن دخل من أبناء التجار مدرسة طره سنة ١٢٤١هـ (١٨٢٥م)، ومكث بها خمس سنوات، ثم انتقل إلى مدرسة (الخانكة) وبقى بها أربع سنوات كان فيها مثال الجد والاستقامة، وكان أول أقرانه. وفي سنة ١٢٥٠هـ (١٨٣٤م) نال رتبة الملازم الثاني مهندسًا طوبجيًّا وعين معيدًا في المدرسة، ثم نقل إلى بلوكات المهندسين التي كانت تعمل في إقامة الكباري وبناء الثكنات في عهد محمد علي، ثم رقي إلى رتبة الملازم الأول في عهده أيضًا، وغلى رتبة اليوزباشي في عهد عباس باشا الأول، وعين قومندانا لأحد بلوكات المهندسين.

وفي سنة ١٢٥٩هـ (١٨٤٣م) شيد منزلا بحارة درب الميضأة بشارع شيخون، وهو المنزل الذي ولد فيه المترجم، وفي عهد سعيد عين ضمن أركان حرب معيته، ثم أحيل إلى الاستيداع في عهد إسماعيل، ثم عين مهندسًا ملكيًا بوزارة الأشغال حتى أحيل إلى المعاش سنة ١٢٩٤هـ[١] (١٨٧٧م) وقد أنجب من البنين سبعة، ومن البنات اثنتين، فأبناؤه هم: المرحوم محمد أفندي على الذي كان صيدليًا بطنطا وتوفي سنة ١٢٢٠هـ (وهو والد الأستاذ أحمد ذكي المستشار بمحكمة النقض فيما بعد) ثم المرحوم سليمان أفندي علوي الذي تخرج من مدرسة الحقوق وعين بالمحاكم المختلطة وتوفي في التاسعة والعشرين من عمره، ثم حسين بك (باشا) واصف وزير الأشغال الأسبق، ثم المرحوم الدكتور عبد الفتاح فتحي من نوابغ خريجي مدرسة الطب (وقد توفي سنة ١٨٩٤م)، وأنجب من السيدة "حفيظة" المرحوم على بك فهمي كامل، ثم المترجم، ثم السيدة عائشة حرم المرحوم عثمان أفندي صبري (والد إبراهيم أفندي صبري من نوابغ خريجي كلية الحقوق سنة ١٩٣٧ وسفير الجمهورية العربية المتحدة في ألمانيا الغربية الآن)، ثم الأستاذ حسن حسني كامل أمد الله في حياته، ثم المرحومة السيدة نفيسة وهي آخر خلف له.

---

(١ ) هذه البيانات الأولى عن كتاب (سيرة مصطفى كامل) تأليف علي فهمي كامل بك شقيق الفقيد.

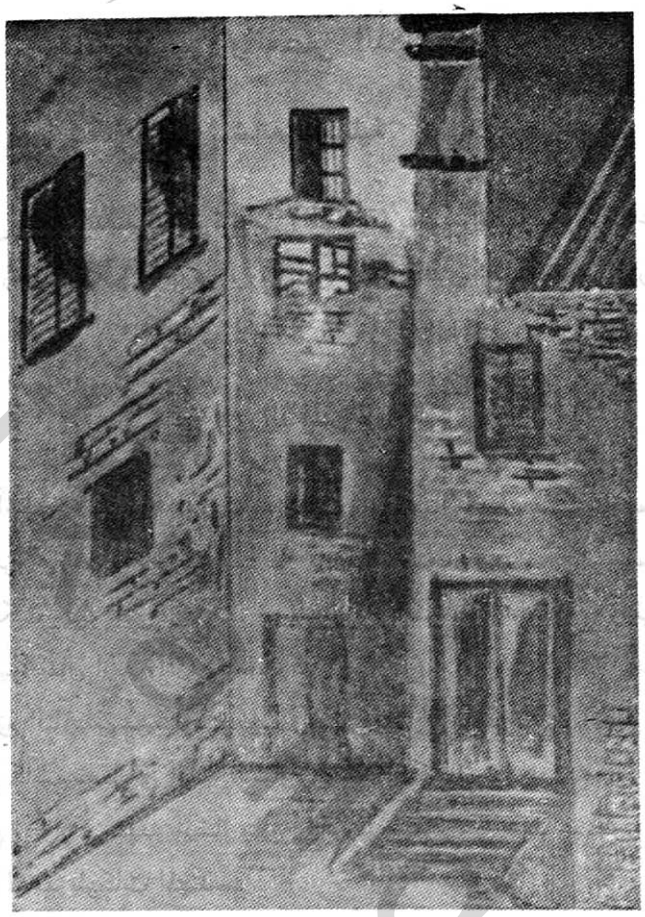

**المنزل الذي ولد فيه الفقيد سنة ١٨٧٤ بدرب الميضة بشارع شيخون بالصليبة**

كان الفقيد ضابطا ومهندسا، جمع بين الصبغة الحربية والصبغة الملكية، إذ كان في أواخر عهده بالحكومة مهندسًا ملكيًا، وكان معروفا بالاستقامة والشهامة وطيب العنصر والخلاق الكريمة، وكان له من غير شك فضل كبير في ظهور مصطفى كامل، إذ كان يعني بتربية أولاده وتنشئتهم النشأة الصالحة، فكن إذا بلغ الولد الخامسة من عمره دعا أحد الفقهاء على منزله لتلقينه مبادئ القراءة والكتابة، فإذا شب أرسله على الكتّاب ليحفظ ما تيسر من القرآن الكريم، ثم يدخله المدرسة. وكان من ناحية أخرى يجمع أولاده حوله في معظم الليالي ويقص عليهم أحاديث الشهامة والنجدة، ويعملهم الصدق والإخلاص؛ كما كان يتفقد أحوالهم في المدرسة، هذا فضلا ن أنه هو بذاته وبأخلاقه الطيبة كان قدوة لأولاده، فعلى أفندي محمد له يد طولى في نشأة الفقيد وتربيته الحسنة وهذه التربية قد مهدت السبيل للنشأة الوطنية التي نشأها الفقيد..

## والدة المترجم

وكذلك كان لوالدته السيدة حفيظة كريمة المرحوم اليوزباشي محمد أفندي فهمي فضل كبير في نشأته. وهي سيدة من فضليات النساء من جهة المحجر بالقاهرة (بشارع الكومي)، وكانت على جانب كبير من مكارم الأخلاق، وكان الفقيد يعزها ويجلها ويشيد بذكرها طول حياته، وحزن أشد الحزن على وفاتها سنة ١٩٠٧، وقد انطبعت فيه أخلاقها من صفاء النفس وحب الخير، والصبر والجلد، مرضت بالقلب في آخر حياتها عدة أشهر، وكانت وطأة المرض تشتد عليها بين حين وآخر، ولكنها كانت تقابل آلام المرض بالصبر والجلد، وظلت كذلك حتى أسلمت الروح، فهذا الصبر على احتمال الآلام والمتاعب قد ورثه الفقيد عن والدته الفاضلة.

## نشأة الفقيد المدرسية

بدت على مصطفى كامل مخايل الذكاء والنجابة وقوة الذاكرة في طفولته، وكان كثير الاهتمام بما يحدثه به أبوه من القصص على عادته مع أولاده، ويعي هذه القصص ويدركها تمام الإدراك وهو بعد لم يتجاوز الخامسة من عمره، وقد عهد أبوه وهو في هذه السن إلى فقيه يدعى الشيخ أحمد السيد أن يعلمه في المنزل مبادئ القراءة والكتابة؛ ويحفظه القرآن الكريم؛ ولما أتم السادسة أدخله مدرسة (والدة عباس الأول) الابتدائية بالصليبة، وهي القائمة إلى الآن، فهذه المدرسة تفخر بحق بأنها أول معهد علمي تخرج فيه نابغة مصر العظيم.

وبدا على مصطفى أول ما بدا في أول عهده بالحياة المدرسية تعلقه بعلم الحساب وميله إليه أكثر من ميله على أي علم آخر، ولا غرو فأبوه كان مهندسًا، فورثت عنه الميل على العلوم الحسابية، وظهرت عليه أيضًا علائم الشمم والإباء والشجاعة، فمن ذلك أنه بعد أن مكث

بمدرسة والدة عباس سنتين حدث أن تلميذًا معه في الفرقة سأله الأستاذ سؤالا لم يجب عليه فأجاب بدلا منه، فسبه الأستاذ وعاقبه بالحبس ساعتين، فعافت نفسه هذا الظلم، وطلب من أبيه أن يلحقه بمدرسة أخرى لأنه لم يستطع أن يتحمل هذه الإهانة، فذهب والده في اليوم التالي و حقق الحادثة وتبين أن ابنه محق في شكواه، فأخرجه من المدرسة وادخله مدرسة (السيدة زينب) الابتدائية التابعة لوزارة الأوقاف وأكب على الدرس في تلك المدرسة كما كان دأبه في مدرسة والدة عباس إذ كان شديد الإقبال على الدرس والمذاكرة، وبدا منه الميل الكبير إلى دروس التاريخ، وظهر ذكاؤه الفائق واستعداده الكبير فصار أول أقرانه.

## وفاة والده

أدركت والده الوفاة يوم ٢٣ جمادي الثانية عام ١٣٠٣هـ (١٨٨٦م) والفقيد في مدرسة السيدة زينب، فحزن لوفاته حزنا شديدا وأثر فيه الحزن عميقًا، وقد كفله من بعده أخوه الأكبر حسين بك (باشا) واصف (وزير الأشغال الأسبق) فطلب منه أن ينقله إلى مدرسة (القريبة) لأنها أقرب إلى منزل جده لأمه الذي أقام فيه وإخوته، فأجابه أخوه إلى طلبه ونقله إليها.

## حصوله على الشهادة الابتدائية

وفي هذه المدرسة تجلت في الفقيد مواهبه في الذكاء والعزيمة والجد والاجتهاد، فتفوق أيضًا على أقرانه بها، ونال شهادة الدراسة الابتدائية في احتفال فخم حضره الخديو الأسبق توفيق باشا سنة ١٨٨٧م.

## في المدرسة الثانوية

دخل المترجم المدرسة التجهيزية (الخديوية) سنة ١٨٨٧، وكان من أساتذته فيها الدكتور محمود بك فوزي الحكيم، وأحمد بك كمال، وأحمد بك حمدي، وعثمان بك أنور، ومحمد بك إدريس، وإسماعيل أفندي فهمي، والدكتور محمد بك كامل الكفراوي وغيرهم، وقد ظل الفقيد على صفاته التي لازمته في التعليم الابتدائي من الجد والإكباب على الدرس والعمل، وظهرت مواهبه من الشجاعة والجرأة والذكاء وقوة الذاكرة واستقلال الفكر وعلو النفس والصراحة في القول، وحسن الإلقاء، فنال احترام الأساتذة والتلاميذ جميعا، وكان موضع إعجابهم. وقد عرفه في ذلك الحين على باشا مبارك وكان وزيرًا للمعارف العمومية، فأعجب بفصاحته وشجاعته وقوة عارضته، وقال له مرة" "إنك امرؤ القيس"، وبشره بأن سيكون عظيما، وأعجب به إعجابا كبيرًا، وقابله يوما في سراي الوزارة وشكى إليه حيف نظام الامتحان إذ أدى إلى رسوبه ورسوب زملائه،

فأعجب بجرأته واقتنع بشكواه وحجته، فعدل عن هذا النظام مما أدى على نجاح مصطفى وكثير من زملائه، وكان الفقيد على حداثة سنه موضع احترامه، فكان الوزير ينشه ويدعوه إلى منزله ويناقشه في المسائل العلمية والاجتماعية، ويقدمه إلى جلسائه من العلماء والكبراء، ويثني عليه أمامهم.

## في مدرسة الحقوق

ونال شهادة الدراسة الثانوية (البكالوريا) صيف سنة ١٨٩٤١، ودخل مدرسة الحقوق الخديوية في أكتوبر من تلك السنة، ونجح في امتحان السنة الأولى، ثم التحق بمدرسة الحقوق الفرنسية في أكتوبر سنة ١٨٩٢، جمع بين المدرستين، وحصل على شهادة الحقوق من كلية تولوز في نوفمبر سنة ١٨٩٤.

## نشأته الأخلاقية

إن الأخلاق هي مهد الوطنية وقوامها، فالأمم التي يتحصن أفرادها بالأخلاق هي التي تنمو فيها الوطنية وتتأصل في نفوس أبنائها، ولا غرو فالوطنية الصادقة لا تسكن إلا النفس المتحصنة بالأخلاق القوية، ولقد كان مصطفى كامل زعيما أخلاقيًا كما كان زعيما وطنيًا، وكانت نشأته الوطنية متابعة لنشأته الأخلاقية، لأن الأخلاق أساس الوطنية الصادقة.

بدأت نشأته الأخلاقية في البيت، من حسن تربية والده إياه، وقدوته الحسنة، ثم استمرت في المدرسة الابتدائية، ثم الثانوية والعالية، ودخل ميدان الجهاد الوطني متميزًا بالأخلاق التي اكتسبها طفلا وتلميذًا وشابًا، ولازمته طوال حياته.

وأبرز الجوانب في حياته الأخلاقية الصدق والإخلاص، وقوة العزيمة، والصراحة والشهامة، وعلو النفس، ولقد كانت هذه الأخلاق خير أساس لوطنيته، كما كانت عدته في الجهاد وسبيله على الفوز في أداء رسالته القومية.

obeikandl.com

**مصطفى كامل**

**في السابعة عشر من عمره**

ظهرت هذه الأخلاق للعيان أثناء دراسته بالمدرسة الثانوية، ذكر المرحوم اليخ على يوسف صاحب المؤيد أنه دخل ذات ليلة على علي باشا مبارك في منزله أوائل سنة ١٨٩٠ وهو يومئذ وزير المعارف، ومجلسه حافل بالفضلاء والأدباء، وإذا بمصطفى كامل وكان وقتئذ تلميذًا بالمدرسة الثانوية يجادل الباشا في أمره ويقول: إنني لا أطلب منك إلا ما وجدت أنت من مثلك يوم كنت تلميذًا مثلي، وما يدريك ألا أكون عظيما أخدم وطني غدًا بأكثر مما تخدمه أنت اليوم، قال هذا ثم خرج غاضبًا، وكأنه ليس بتلميذ، وكأنما الباشا الذي يخاطبه ليس وزيرا للمعارف العمومية، وبعد ما خرج ابتسم الباشا وقال إنني أعجب بشجاعة هذا التلميذ، ويلذ لي أن يتكلم أمامي بمثل هذه الشجاعة النفسية، ولذلك لم أخبره بما أمرت اليوم لأجله، وكان قد أصدر أمره بما طلب منه من قبل، وتركه يخاطبه بمثل هذه اللهجة متلذذًا بما كان يعجبه من كلامه وجداله، قال الشيخ على يوسف: "من تلك اللحظة عرفت (مصطفى كامل) وكأنما عرفت رجلاً لا تلميذًا في المدرسة".



obeikandl.com

# نشأته الوطنية – سنة ١٨٩٠

تدل الشواهد والبينات على أن نشأة مصطفى كامل الوطنية بدأت وهو بعد في المدرسة الثانوية، ونقصد بالنشأة الوطنية اتجاهه إلى العمل والجهاد في سبيل حرية مصر واستقلالها، بدأ يشعر وهو بعد في السادسة عشرة من عمره أن عليه واجباً نحو وطنه يجب أن يؤديه، ظهر هذا الشعور أول ما بدا وهو في المدرسة الخديوية إذ أسس جمعية أدبية وطنية أسماها (جمعية الصليبة الأدبية) واختار لها أعضاء من بين أصدقائه في التلمذة ممن توسم فيهم الفضل والذكاء والكفاية، وكانت ثمة جمعية أخرى تسمى (جمعية الاعتدال) تعقد جلساتها الأسبوعية في مدرسة الأمريكان، فكان المترجم يزورها ليتعرف إلى من فيها من الأفاضل والأدباء فيجب إليهم زيارة جمعيته، وقد نمت الجمعية ولم يمض على تأسيسها أكثر من ثلاثة أشهر حتى كان فيها نحو سبعين عضوًا.

ومن ذلك الحين تعلقت نفسه بالوطنية والخطابة، فكان يقف في الجمعية خطيبًا مساء كل جمعة مرتجلا ما تملى عليه البديهة من الخطب، وتجلت مواهبه الخطابية وهو بعد في هذه السن المبكرة، وأول خطبة ألقاها كانت في (فضل الجمعيات في العالم)، وأخذ يراسل الصحف في ذلك الحين، ويتجلى تعلقه بالوطنية منذ كان بالمدرسة الثانوية من خطابه الذي أرسله على شقيقه على فهمي (بك) في ١٢ يوليه سنة ١٨٩١ لمناسبة حصوله على شهادة الدراسة الثانوية، واعتزامه دخول مدرسة الحقوق الخديوية، إذ يقول فيه مخاطبا أخاه (الذي كان وقتئذ ضابطًا بالسودان):

"السلام عليكم أيها الأخ الحبيب، اليوم أبشرك أن العقبة الكؤود التي أمامي وهي شهادة الدراسة الثانوية قد زالت من أمامي، فقد نلتها بعد أن أضنت جسمي فأصبح نحيلاً، لا صحيحًا ولا عليلاً، ولكني أؤمل أن تعود إليّ القوى لأدخل مدرسة الحقوق الخديوية، فقد عزمت على الانضمام إلى صفوف طلابها. لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأفراد والأمم. وأنت تعلم أني أميل إليها كثيرًا، وعزمت كذلك على تأسيس جمعية أسميها جمعية "إحياء الوطن"، وربما دهشت من إقدامي هذا لضعفي الذي تعلمه في اللغة الفرنساوية ولكن اعتماد على الله وعلى نفس اكبر ضامن لنجاحي والله الموفق على أقوم سبيل".

نشرنا هذا الخطاب بالزنكوغراف (ص ٣٩) لأنه أول رسالة بخط المترجمة [١] ولأنه أول وثيقة تلقى الضوء على نشأة مصطفى كامل الوطنية، فالكتاب مؤرخ في ١٢ يوليه سنة ١٨٩١، وهو يصفق اتجاه المترجم إلى الانتظام في سلك مدرسة الحقوق "لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأفراد والأمم"، وهذا الاتجاه ليس وليد اليوم الذي كتب فيه الخطاب، بل هو وصف لشعور نفساني خالج المترجم منذ كان طالبًا بالمدرسة الثانوية، وقبل أن يتخطى تلك العقبة الكؤود، وقوله مخاطبًا أخاه: "وأنت تعلم أني أميل إليها كثيرًا" مشيرًا إلى مدرسة الحقوق، يدل على أن هذا الميل كان معروفًا عنه قبل كتابته هذا الجواب، واعتزامه تأسيس جمعية اختار لها اسم (إحياء الوطن) دليل آخر على شعوره بالعمل لإحياء الوطن، وأن هذا الشعور ليس وليد الساعة التي كتب فيها الخطاب، بل هو نتيجة تفكير طويل وشعور عميق اطمأنت نفسه إليه.

(١ ) نشرت صورته لأول مرة في كتاب (سيرة مصطفى كامل في أربعة وثلاثين ربيعا لعلى فهمي كامل بك).



obeikandl.com

## خطاب الفقيد إلى شقيقه علي فهمي بك كامل

## عقب حصوله على الشهادة الثانوية – ١٢ يوليه عام ١٨٩١

لذلك يمكننا أن نحدد مبدأ نشأة الفقيد الوطنية بسنة ١٨٩٠، وهو أصح السنين لتأريخ ظهور تلك العبقرية الوطنية التي سطع نورها في أجراء وادي النيل وبعثت النهضة القومية من مرقدها.

ويبدو من هذا الخطاب ضوء آخر تجتلي به أخلاق الفقيد التي لها صلة وثيقة بوطنيته، فمن خلال سطوره وكلماته تلمع معاني العزيمة الماضية، التي كانت من أخص صفاته، فهو قد أجهد نفسه لينال شهادة الدراسة الثانوية حتى أصبح جسمه نحيلا "لا صحيحًا ولا عليلاً"، وهذا يدلك مع مبلغ قوة إرادته، وتبدو صورة نفسه المتوثبة على عظائم الأمور من اعتزامه تأسيس جمعية لإحياء الوطن وهو منك القوى من الجهد الذي بلك في الدرس والامتحان، فهذا الجهد الذي كن في حاجة على الراحة بعد العناء لم يصرف الفقيد عن متابعة الجهد والعمل لإحياء الوطن.

## العصر الذي ظهر فيه مصطفى كامل

لا تكمل دراسة شخصية المترجم جون أن ندرس العصر الذي ظهر فيه، لكي نتبين مبلغ تأثير العصر في شخصيته، وتأثير شخصيته في عصره.

فلنا إن ظهور مصطفى كامل في ميدان الجهاد الوطني قد بدأ سنة ١٨٩٠، فنلقف قليلاً لكي نصف حالة مصر السياسية في ذلك العصر.

مضى على الاحتلال البريطاني نحو تسع سنوات كانت سنوات يأس وقنوط واستسلام من جانب الأمة، كما كانت عهد طغيان وجبروت من جانب احتلال البريطاني.

فالثورة العرابية بما انتهت إليه من الإخفاق والهزيمة سنة ١٨٨٢ قد أثرت في حالة الأمة المعنوية تأثيرًا سيئًا، لأن إخفاق الثورات في ذاته يبعث اليأس في النفوس، هذا إلى أن الخاتمة التي انتهت بها الثورة وما أفضت إليه من الاحتلال هي مظهر بارز لخيبة الأمل في الثورات، إذ أن الثورة التي قامت في الأصل لإنالة البلاد حريتها السياسية قد انتهت بالعكس بفقدان هذه الحرية، ثم بفقدان الاستقلال الذي كانت تتمتع به من قبل، فقلما يوجد من الثورات ما انتهت بخيبة الأمل مثلما انتهت به الثورة العرابية.

أضف إلى ذلك ما بدا من زعماء الثورة العرابية من ضعف وتسليم في ميدان الجهاد، وخضوع ومذلة بعد الهزيمة، وفي أثناء المحاكمة، وتنصلهم من تبعات الثورة التي اقتادوا زمامها، والتجاء معظمهم إلى الإنجليز يستجدون منهم الصفح والمعونة، وما انتهى إليه أمرهم من النفي والنسيان، كل ذلك قد أدى على تسرب اليأس في النفوس، فنهاية الثورة العرابية كانت من أسباب

انحلال المقاومة الأهلية في أوائل عهد الاحتلال البريطاني، فإن روح الخضوع والاستسلام قد تسربت من نفوس الزعماء على صفوف الأمة، فركنت إلى الإذعان، وظلت هذه الروح غالبة على الأمة سنوات عديدة. إذ ليس من السهل أن تتخلص الأمم من أمثال هذه الحالة المعنوية، بل قد تمر عليها أجيال ثم أجيال وهي تراها حالة عادية لا غضاضة منها ولا غرابة فيها، حتى يظهر فيها الزعماء المخلصون، ينفضون عنها غبار اليأس والذل، ويبعثون فيها روح الحياة والكرامة، فلا تتغير نفسية الأمة إلا بتأثير عوامل وشخصيات قوية تبعث فيها دما جديًا قويًا، من أجل ذلك قلنا في كتابنا عن (الثورة العرابية) إن هزيمة الثورة العرابية لم تقتصر نتائجها على احتلال الإنجليز أرض مصر دون أية مقاومة تذكر، بل كاهن من آثارها سريان الخضوع واليأس في نفوس المصريين، ومن هنا جاء الانحلال الوطني العام الذي أصاب البلاد عقب إخماد الثورة العرابية وبقى مخيما عليها نحو عشرات سنوات، ولا غرابة في ذلك فإن البلاد التي تشهد خيبة الأمل في ثورتها القومية، مثلما رأته مصر من الثورة العرابية، تبقى تحت تأثير اليأس والقنوط إلى أن يقيَض لها الله زعامة جديدة، تسلك بها سبيل الجهاد من جديد، وهذا هو فضل مصطفى كامل فيجهاده، فلقد ظهر في وقت كان اليأس مستحوذًا على النفوس، فبعث في الأمة روحا جديدة، فهو بحق موجد الحركة الوطنية ومنشئها، لا ممثلها ونائبها، وفرقُ بين الزعيم الذي يخلق حركة من العدم، ويستبدل من اليأس أملا، ومن الجمود حياة وجهادًا، وبين الزعيم الذي تدفعه الحركة الوطنية وتخلقه خلقًا جديدًا، ولا يكون له من العمل إلا أن يمثلها أو يستغلها.

لم يكن إخفاق الثورة العرابية هو العامل الوحيد لسريان روح اليأس والاستسلام، بل اجتمعت إليه تلك الحوادث التي تعاقبت على البلاد في السنوات العشر الأولى من الاحتلال، فكانت أيضًا من بواعث القنوط وانقطاع الأمل.

في هذه السنوات شهدت البلاد التواء السياسة الإنجليزية، ونقضها مواعيدها في الجلاء، شهدت جمود الدول الأوروبية إزاء المسألة المصرية، وتركها إنجلترا تعبث ما تشاء باستقلال مصر وحقوقها، شهدت تهدم صرح الإمبراطورية المصرية الواسعة الأرجاء التي أسستها في السودان، ورأت الكوارث والهزائم تصيب جيشها في أصقاعه، وعواصمه ومديرياته تسقط واحدة بعد أخرى في أيدي الثوار، شهدت خضوع الحكومة المصرية لأوامر القنصل البريطاني العام، شهدت إلغاء الجيش المصري، وتأليف جيش جديد هزيل، قائده وكبار ضباطه من البريطانيين، شهدت النفوذ البريطاني يتغلغل في شئون الحكومة كافة، من سياسية وحربية ومالية وتشريعية وإدارية، شهدت إلغاء الدستور الذي نالته سنة ١٨٨٢ وتأليف هيئة شورية لا حول هلا ولا قوة، شهدت نوعا من الحماية مضروبا على مصر، دون أن تعرف له أساسًا ولا حدودًا، ولا قواعد ولا

وقتًا محدودًا، ثم شهدت فوق ذلك استسلام رجالات مصر لإرادة العميد البريطاني، وتقرب أكثرهم إليه، والتماسهم الزلفى لديه.

كان الخديو توفيق باشا يتولى مسند الخديوية، مذعنًا للسيطرة البريطانية، لا يرد للعميد الإنجليزي (اللورد كرومر) طلبًا، وقد أضفى على الأداة الحكومية روح الاستسلام لإرادة الإنجليز، واللورد كرومر وهو صاحب الأمر والنهي في شئون الحكومة، يتدخل في كل وزارة بواسطة الموظفين الإنجليز الذين كانوا على رأس المصلح المهمة، فالسردار والضباط البريطانيون على رأس الجيش، والبوليس تحت إمرة المفتش البريطاني العام، والمالية في يد المستشار المالي، والأشغال في يد وكيل الوزارة البريطاني، والحقانية منذ ١٨٩١ في يدا المستشار القضائي، وكان يتولى الوزارة في ذلك الحين (سنة ١٨٩٠) رياض باشا، وفي عهده استمر النفوذ البريطاني يتغلغل في دوائر الحكومة، ثم استقال في مايو سنة ١٨٩١؛ وخلفه في رياسة الوزارة مصطفى فهمى باشا، وهو أكثر الوزراء خضوعا للاحتلال الإنجليزي واستسلاما له، وليس في البلاد هيئة نيابية تمثل سلطة الأمة، بل كن بها ذلك المجس المعروف بمجلس شورى القوانين، ولم يكن يسمع له صوت في الشئون العامة، والصحافة إما موالية للحكومة، أو ضعيفة فاترة بإزاء السيطرة البريطانية، وجمهرة الأمة تحت تأثير هزيمة الثروة العرابية وخضوع الحكومة للسياسة الإنجليزية، منصرفة عن الكفاح والجهاد.

وكان الرجال البارزون في مصر إما منزوين في دواوين الحكومة، متربعين في المناصب، وبعضهم أعوان الغاصب، وإما منصرفين لأعمالهم الخاصة في المحاماة أو الطب والزراعة والتجارة والذين أدركوا منهم الثورة العرابية أو كانوا من رجالها قد انصرفوا عنها، وحل اليأس في نفوسهم، والذي لم يشتركوا فيها كانوا متأثرين بالروح العامة التي خيمت على البلاد، روح الخضوع والاستسلام، ويكفيك لكي تتمثل صورة الروح العامة للطبقة الممتازة من المجتمع أن تذكر أن المغفور له سعد باشا زغلول (الذي تولى قيادة الحركة الوطنية سنة ١٩١٩) كان وقتئذ المحامي النابه (سعد أفندي زغلول)، ومع أنه كان منصرفا للمحاماة ولم يضطلع بعد بأعباء الجهاد القومي، فإن آثر المنصب الحكومي على الحياة الحرة، فعين سنة ١٨٩٢ قاضيا (مستشارًا) بمحكمة الاستئناف، وأقر لزملائه المحامين في حفلة تكريمهم إياه أنه اختار القضاء "ليستريح بعد العناء[١]" ففي الوقت الذي ضرب فيه اليأس رواقه على الطبقة الممتازة من المجتمع خاصة وعلى الأمة عامة، بدأ مصطفى كامل حياة العناء والجهاد في سبيل مصر واستقلالها،

---

(١ ) المؤيد عدد ٢٩ يونيه سنة ١٨٩٢.



obeikandi.com

من هذه الناحية تستطيع أن تقدر فضل المترجم، إذ أنشأ الحركة الوطنية في عصر تغلبت فيه عوامل اليأس والجمود، وتظاهرت أسباب الضعف والخذلان.

والآن يجدر بنا أن نتساءل من أين جاءت مصطفى كامل هذه الروح الوطنية في عصر اكتنفته عوامل اليأس والقنوط، وكيف نهض وحده وهو في هذه السن المبكرة، إذ كان لا يتجاوز السادسة عشرة من عمره؟

لم يقل أحد إن أباه (على ما كان عليه من الفضائل) هو الذي غرس في نفسه عقيدة الوطنية. لأن (على أفندي محمد) لم يكن فذًا في الآباء. بل كان كغيره من خيار الرجال الذين لم يكونوا يغنون بتنشئة أبنائهم النشأة الوطنية، ولم يكن في المدارس كذلك دروس في الوطنية يتلقاها تلاميذها، كما أن العصر الذي ظهر فيه مصطفى لم يكن مستعدًا لأن تكتسب فيه الوطنية بطريق القدوة،وإذا قلنا إن أخلاق مصطفى كامل هي التي أوحت إليه العقيدة الوطنية، فإن كثيرًا من الشبان والتلاميذ كانوا على مثل أخلاقه الفاضلة، ومع ذلك لم ينشأوا على غراره في العقيدة الوطنية، وإذا أردنا أن نعلل هذه النشأة بأنها كانت نتيجة ما كانت مصر تعانيه من احتلال يعبث باستقلالها ويتغلغل في شئونها، وأن مصائب الوطن كانت كافية لتحريك نزعة الوطنية في نفوس المصريين، فإن هذه المصائب لم تحرك في نفوس الناس ما حركت من نفس مصطفى، بل إن المصائب كان لها تأثير عكسي في ذلك العصر، إذ بعثت الياس في النفوس، وجنحت بالأمة للاستسلام، هذا أن فريقًا من المصريين كانوا يستفيدون من مصائب الوطن، ويعدها قوم من الفوائد والحسنات!

ففي الحق إنه لا تعليل هذه النشأة إلا أنها قبس من نور العبقرية، فالعبقرية هي مصدر هذه النشأة، وقوامها قوة الإرادة والإيمان، ولا غرو فهذه القوة تذلل الصعاب وتأتي بالمعجزات، وهذا هو سر العبقرية، لا تجد له تعليلا دقيقًا، فإذا عللته بتأثير البيئة أو الوراثة كما يقولون أعترضك في هذا أن العبقري قد ينشأ وغيره من الناس في بيئة واحدة، ومن أب واحد، وأم واحدة، ومع ذلك ينفرد بالنبوغ دون أقرانه وإخوانه، فنشأة مصطفى كامل الوطنية، ثم حياته الوطنية، هي قبس من عبقريته، وقد اتجهت هذه العبقرية على إحياء الوطن وبعث الحركة القومية من مرقدها، ومن مداد هذه العبقرية خط التاريخ دورًا عظيمًا من أدوارها، ولقد كان مصطفى منشئ هذه الدور، إذ نفخ في الأمة من روحه، في وقت كانت الملابسات والظروف تجعل الدعوة الوطنية من أشق المهام وأبعدها عن النجاح، وكانت موضع الزراية والاستخفاف من سواد الأمة، بل من الطبقة الممتازة في المجتمع، وهذا ولا ريب مما يظهر فضل مصطفى كامل في بعثه الحركة الوطنية.

* * *

# الفصل الثاني

# المرحلة الأولى من الجهاد

# في المدرسة الثانوية وفي مدرسة الحقوق

obeikandl.com

قلنا إن نشأة الفقيد الوطنية بدأت سنة ١٨٩٠، وهو طالب في المدرسة الثانوية، وقد أسس أول ما أسس (جمعية الصليبة الأدبية)، وتعلقت نفسه من ذلك الحين بالخطابة والكتابة والأدب، فكان يقف في الجمعية خطيبًا في مساء كل جمعة مرتجلا ما تملى عليه البديهة، وكان يسترعي الأنظار ويملك الأسماع بمواهبه الخطابية.

دخل مدرسة الحقوق الخديوية في أكتوبر سنة ١٨٩١، وهو في السابعة عشرة من عمره، وكان قلبه يتقد وطنية وإخلاصًا لمصر، فلم يستطع أن يصبر حتى ينال شهادة الليسانس لكي يبدأ الجهاد، بل ب>ا جهاده وهو في مهد التعليم، في المدرسة الثانوية، ثم في مدرسة الحقوق.

وكان رفيقه وزميله في دراسة الحقوق فؤاد سليم (باشا) وقد تلاقيا لأول مرة في المدرسة المذكورة، فتعارفت روحاهما، وائتلفا ائتلافا قلبيًا وروحيًا، وقويت بينهما من ذلك الحين أواصر الصداقة، وتعرف الفقيد بواسطته على والده لطيف باشا سليم، فكان له خير مرشد ومشير، كما كان له حين عظم شأنه نعم العضد والنصير، وكان الفقيد يسبق عصره في النضج وقوة الوجدان والشعور. كان وهو في مدرسة الحقوق يتعرف على الرجال البارزين في ذلك العصر، ويتصل بهم ويناقشهم، ويتبادل وإياهم الآراء والأفكار، نذكر منهم الشيخ على الليثي الشاعر والأديب الكبير، ولطيب باشا سليم، وإسماعيل باشا صبري الشاعر المشهور، وعلى بك فخري، وأمين باشا فكري، ومحمود بك سالم، وإسماعيل بك شيمي،وآخرين من أعضاء مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية.

وقد حدث يومًا وهو في مدرسة الحقوق أن جرت بينه وبين صديقه فؤاد سليم مناقشة حادة أصدرت المدرسة على أثرها أمرًا بحرمانهما دخولها أسبوعًا فاستاء كلاهما من هذا القرار، ولم يرد فؤاد بك أن يعود إلى المدرسة بعد انتهاء الأسبوع، بل التحق بمدرسة الحقوق الفرنسية التي تأسست في ذلك العهد، أما مصطفى فعاد إلى مدرسته واستمر فيها حتى انتهاء السنة الأولى.

انتقل المترجم من السنة الأولى إلى السنة الثانية بنجاح، وفي صيف ذلك العام (١٨٩٢) قصد إلى مدينة الإسكندرية لتبديل الهواء، فاجتمع هنا بصاحب الأهرام بشاره باشا تقلا، وكان واسطة التعارف بينهما صديقه الحميم الشاعر خليل بك مطران، فأعجب به وأجله وأفسح جريدته ينشر فيها ما يبعث إليه من الرسائل الوطنية.

وفي شهر أكتوبر سنة ١٨٩٢ رغب إليه صديقه فؤاد بك سليم أن يتم دراسته في مدرسة الحقوق الفرنسية، ليكونا بهما معًا، فمالت نفسه على العمل بهذا الرأي لسببين، أحدهما أنه يجد في هذه المدرسة الحرية التي تصبو إليها نفسه، فلا يتقيد بالنظم المتبعة في مدرسة الحقوق

الخديوية، والثاني أن يستزيد من دراسة اللغة الفرنسية، فيجيد الكتابة والخطابة بها ويدافع عن قضية الوطن أمام الرأي العام الأوروبي، وقد جمع وقتًا ما بين المدرستين، فكان يقضي سحابة النهار في المدرسة الأميرية، والمساء في المدرسة الفرنسية، إذ كانت الدراسة فيها تبدأ بعد الغروب، ويبدو لك من جمعه بين المدرستين ما فطر عليه من الإباء وعلو النفس والتعلق بالحرية، بله الجد والمثابرة على الدرس، فقد أراد أن يكون المجال فسيحًا أمامه لينصرف من إحداهما إلى الأخرى إذ ما ضيق على ضميره نظام أو إنسان، وفي تلك السنة المكتبية ١٨٩٢–١٨٩٣ أكثر من الكتابة في جريدتي الأهرام والمؤيد.

وكان وهو يخطب بين إخوانه الطلبة يثير حماستهم الوطنية لمقاومة الاحتلال، فأكبروا فيه وطنيته ومواهبه الخطابية، واجتمعت قلوبهم على محبته والإعجاب به.

وفي نوفمبر سنة ١٨٩٢ زار الخديو عباس الثاني مدرسة الحقوق الأميرية، فكان التلميذ "مصطفى كامل" من الطلبة النجباء الذين رحبوا به وألقى بين يديه قصيدة مطلعها:

بشرى الحقوق بسيد الأمراء　　كنز العلا عباس ذو النعماء

بشراك يا دار العدالة والهدى　　بمليك مصر وأوحد العظماء

وفي يناير سنة ١٨٩٣ لمناسبة أزمة إقالة الوزارة الفهمية [١] قامت مظاهرة وطنية من طلاب المدارس العالية وفي مقدمتهم طلبة الحقوق لتأييد الخديو في خلافه مع اللورد كرومر، وكان الفقيد في طليعة هذه المظاهرة.

وفي أوائل تلك السنة ألف رسالة (أعجب ما كان في الرق عند الرومان)، وهذه الرسالة على صغر حجمها أوضحت حقيقة الاستعباد الروماني المنافي لأحكام الرقي الشريعة الإسلامية.

## إنشاء مجلة المدرسة

وفي تلك السنة أيضًا أنشأ مجلة أسماها (المدرسة)، صدر العدد الأول منها يوم السبت ١٨ فبراير سنة ١٨٩٣ – غزة شعبان سنة ١٣١٠؛ وهي مجلة وطنية أدبية تهذيبية علمية تصدر في غرة كل شهر عربي، نجعل شعارها المطبوع في صدر كل عدد (حبك مدرستك حبك أهلك ووطنك).

---

(١ ) راجع تفصيل هذه الأزمة في الفصل السادس عشر.



obeikandl.com

كان المترجم مدير المجلة ومحررها، وتطوع بعض الكتاب المجيدين لكتابة المقالات والرسائل فيها، وقد رحب بها السيد عبد الله نديم (خطيب الثورة العرابية)، وكان قد ظهر بعد اختفائه وأصدر مجلته (الأستاذ) فنوه فيها بظهور مجلة الفقيد[١].

وتبدو في مجلة (المدرسة) روحه الوطنية، فالروح التي أملت عليه إصدارها وهو بعد في التاسعة عشره من عمره هي ذات الروح التي أوحت إليه إصدار (اللواء) حين بلغ السادسة والعشرين، فالينبوع واحد، وهو ينبوع الوطنية الفياض.

إن ظهور مجلة (المدرسة) يعطيك فكرة عن شخصية المترجم، فهي أول مجلة مدرسية أصدرها طالب مصري، وفي إقدامه على إصدارها وهو بعد في التاسعة عشرة من عمره ما يدلك على عظيم همته ومضاء عزيمته، وقوة وطنيته، فليس من السهل على طالب في مثل سنه أن يصدر مجلة يتولى تحريرها وإدارتها والإنفاق على تكاليفها، بل هو عمل قد تنوء به الجماعة من الرجال، ولكن عبقرية المترجم كان تذلل الصعاب، ويدل إصدارها كذلك على ميله للصحافة منذ نشأته الوطنية، لا غرو فالصحافة كانت أداة كبرى لجهاده وكفاحه. ويكشف أيضًا هذا العمل عن قوة وطنيته المغروسة في فؤاده، فهو يقتطع من وقته لإصدار مجلة يبث فيها بين الشباب روح الوطنية والتهذيب.

كتب على أخيه على بك فهمي كامل في ١٩ فبراير سنة ١٨٩٣ كتابا يقول فيه" "أبعث غليك في هذا البريد بمجلة المدرسة التي أنشأتها لخدمة الناشئين لا للربح والشهرة".

وهذا الكتاب يدلك على الفكرة التي صدرت عنها المجلة، فهو لا يقصد منها الربح والمنفعة، بل يرمي على أداء الواجب الوطني محو بلاده.

وكان عدا إصداره مجلة المدرسة ينشر بين حين وآخر المقالات في جريدتي الأهرام والمؤيد.

## اتصاله بعبد الله نديم

عاد السيد عبد الله نديم إلى مصر من منفاه سنة ١٨٩٢، فاتصل به الفقيد، وعرف منه أحاديثه أسرار الثورة العرابية، إذ كان النديم خطيبها وأحد كبار زعمائها[٢]. عرف منه حوادث الثورة على حقيقتها، وأدرك أسباب إخفاقها وهزيمتها، وإذ كان يعد نفسه لزعامة الحركة

---

(١ ) مجلسة (الأستاذ) للسيد عبد الله نديم عدد ٢٨ فبراير سنة ١٨٩٣.

(٢ ) ترجمنا له في كتابنا (الثورة العرابية) ص ٥٣١ طبعة سابقة.



obeikandl.com

الاستقلالية، فإن أحاديث عبد الله نديم قد أفادته كثيرًا في تعرف مواطن الخطأ وأسباب الإخفاق في الثورة العرابية، فتجنبها في جهاده، كما عرف شيئًا كثيرًا من دسائس السياسة الإنجليزية، تلك الدسائس التي كان لها دخل كبير في إخفاق الثورة ووقوع الاحتلال، وإنك لتلمح في حياة المصطفى كامل الوطنية والسياسية مبلغ تجنبه أخطاء العرابيين، فهو لم يفكر في اتخاذ الجيش أداة للحركة السياسية، بل كان يعتمد على قوة الرأي العام وتربية الشعب التربية الوطنية والأخلاقية الكفيلة بتوطيد دعائم الحرية والديمقراطية، وإذ علم أن اصطدام العرابيين بالخديو توفيق باشا قد مكن للدسائس الإنجليزية من أن توقع الفرقة والانقسام في مصر، فإنه نأي عن هذه السياسة، وسلك بالحركة الوطنية سبيل التفاهم مع عباس الثاني، وتفادي الاصطدام به برغم ما شجر بينهما من خلاف كما سيجيء بيانه وكان يقم من عرابي استسلامه للإنجليز، وأدرك مبلغ تأثير هذا الاستسلام في حالة الأمة المعنوية، فرسم لنفسه خطة المقاومة المستمرة للاحتلال، مقاومة لا ضعف فيها ولا هوادة ولا تراجع، وهكذا كانت أخطاء الثورة العرابية درسًا لباعث الحركة الوطنية، جّنبه مواضع الخيبة والإخفاق في الجهاد، والزعامة الحقة هي التي تستفيد من تجارب الماضي، وتعتبر بمصائب الوطن، فتقيه مواطن الزلل، وتسلك بالأمة سبيل الحكمة والرشاد.

obeikandl.com

## سفره إلى باريس

## لأداء امتحان الحقوق

سافر الفقيد لأول مرة على أوروبا يوم الجمعة ٢٣ يونيه سنة ١٨٩٣ ليؤدي امتحان السنة الأولى بكلية الحقوق بباريس، فأداه بنجاح[١]، وقد كانت هذه الرحلة فرصة سنحت له ليستزيد من معارفه ويكتسب من مشاهداته في بلاد الحضارة والوطنية، وكان أثناء مقامه بباريس مثال الجد والاستقامة، منصرفا عن اللهو واللعب، ولم يكن همه بعد أن يفرغ من درساته كل يوم إلا أن يزور المكاتب والمعاهد، أو يحادث ذوي الرأي فيما يتعلق بشؤون مصر وما يجيش به صدره نحوها من العواطف والآمال، وكان من خلال رحلاته هذه لا يفتأ يذكر مصر ومجدها، كتب إلى أخيه على بك فهمي كامل خطابا من باريس في ٢٩ يوليه سنة ١٨٩٣ يقول فيه:

"لقد تعرفت هنا بطلاب روسيين ويونانيين ويابانيين فرأيتهم جميعًا منكبين على العلم، ولكني أؤكد لك أن المصري أقواهم عارضة وأعلاهم ذكاء ولا ينقصه إلا الإرادة التي هي أس النجاح".

ولقد أفاد المترجم كثيرًا من ذهابه إلى أوروبا بعامة وفرنسا خاصة، فإن هذه السياحة التعليمية، قد فتقت ذهنه وعلمته من شئون الأمم والجماعات ما لم يكن يعلم، وعرف فيها أوساطًا لم يكن يعرفها، واتصل بشخصيات لم يكن ليتصل بها لو بقي في مصر، وكانت هذه الرحلة باكورة سياحاته في أوروبا التي رفعت شأنه في ميدان الجهاد القومي وجعلت اسمه عالميًا، وخدم بها القضية المصرية أعظم الخدمات، إذ نقلها إلى أذهان وهيئات كانت مجهولة فيها، ولا شك أن اتصاله بالأساتذة والصحفيين الفرنسيين قد أفاده كثيرًا من الوجهة العلمية والمعنوية، فإن وطنية العشب الفرنسي هي بلا مراء قدوة للشعوب التي تريد أن تحيا حياة الحرية والكرامة.

عاد من أوروبا في أغسطس سنة ١٨٩٣، ووالي دراسة الحقوق وإصدار مجلة (المدرسة) وقد زادت أواصر الود بينه وبين لطيف باشا سليم (والد فؤاد بك سليم) إذ كان يرى تأليف هيئة تضم صفوف المعارضة، فانضم إلى هذه الهيئة، وكانت تضم الصحفي والخطيب والقاضي والضابط، وكلهم من خيار الرجال.

---

(١ ) ذكرت جريدة المؤيد نجاحه في عدد ٣٠ يوليه سنة ١٨٩٣.



obeikandl.com

## رواية فتح (الأندلس)

وفي ديسمبر سنة ١٨٩٣ أخرج رواية (فتح الأندلس) ضمنها حوادث فتح العرب للأندلس[١] وأظهر فيها فضل الصدق والأمانة والثبات وقوة العزم والإرادة، وهي الصفات التي كانت أكبر عضد للفتح العربي، وقد إلى تربية الأمة على الفضائل الوطنية.

## امتحان السنة الثانية

ثم قصد إلى فرنسا في صيف سنة ١٨٩٤ وأدى بنجاح امتحان السنة الثانية، وزار باريس وبروكسل، ثم أخذ بعد نجاحه يراسل الأهرام، فنشر بها ست مقالات عن معارض ليون وأنفرس، وعاد إلى مصر في سبتمبر، وأعتزم أن يؤدي امتحان السنة الثالثة حيث ينال الليسانس في نوفمبر من تلك السنة.

**مصطفى كامل**

**في التاسعة عشرة من عمره**

(١ ) المؤيد عدد ١٨ ديسمبر سنة ١٨٩٣.



obeikandl.com

## حصوله على شهادة الحقوق

## (نوفمبر سنة ١٨٩٤)

وعلى ما في هذا العزم من الإجهاد، فإن قوة إرادته كفلت له تحقيق أمنيته، فسافر على باريس في أكتوبر سنة ١٨٩٤، ووجد صعوبة في أداء الامتحان النهائي في كلية باريس، غذ لا يتفق ونظامها أن يؤدي الطالب امتحانين في سنة واحدة، فاستعان بأستاذيه في مدرسة الحقوق الفرنسية، وهما المسيو ديروزاس ناظر المدرسة، والمسيو موللر أستاذ الاقتصاد السياسي بها، فنصحاه بأن يعدل عما اعتزمه إشفاقا على صحته، ولكن أصر على عزمه، ولما لم تقبل مدرسة باريس أداء امتحانين في سنة واحدة ساعداه لدى كلية (تولوز) في أن يؤدي أمامها الامتحان النهائي، فقبل طلبه بوساطة ذينك الأستاذين، وانتقل المترجم إلى تولوز، وهنا أكبر على الدرس لكي يتم علوم السنة الثالثة، ودخل الامتحان، فنجح فيه ونال شهادة ليسانس الحقوق في نوفمبر سنة ١٨٩٤ وله من العمر عشرون سنة.

obeikandl.com

# الفصل الثالث

# المرحلة الثانية من الجهاد

# بعد نيله شهادة الحقوق

obeikandl.com

كان أول شعور المترجم عقب نجاحه أن اتجه إلى استمرار الجهاد في سبيل الوطن، قال في كتاب له على أخيه على فهمي كامل بتاريخ ١٨ نوفمبر سنة ١٨٩٤:

"واليوم أحمد الله كثيرًا وأشكره جزيلا على فك قيد اسري والمن بإطلاقي في ميدان الحرية، فقد أصبحت حاملاً شهادة الحقوق، وعولت بمشيئة الله على الانتظام في سلك رجال المحاماة، لأدافع عن حقوق الأفراد، ولو أتيح لي الخير وبلغت ما أتمنى لكنت المدافع عن حقوق الأمة بأسرها أمام العالم أجمع، لأن مصر وهي جنة الدنيا لا تستحق أن يداس شرفها بالأقدام ونصبح فيها نحن أبناءها الأعزاء ممقوتين غرباء".

لم يفكر الفقيد في مستقبله حين نال إجازة الحقوق، بل فكر في واجبه نحو مصر. وهذا يدلك على قوة وطنيته التي ملكت عليه مشاعره، فقد عزم على الانتظام في سلك المحاماة لأنها ميدان الحرية والدفاع عن الحقوق، ولأنها السبيل على الدفاع عن حقوق الوطن، ولم يفكر في الانتظام في سلك المناصب لأن لها قيودًا لا يستطيع معها أن يؤدي واجب الجهاد لمصر، ولأن الحكومة في ذلك العصر كان خاضعة لسيطرة الاحتلال وهو لا يقبل هذا الخضوع، بل هو ثائر على الاحتلال.

## حديثه في جريدة (جازيت دي تولوز)

## (نوفمبر سنة ١٨٩٤)

ويبدو لك مبلغ يقينه برسالته وتلهفه على نشرها أنه لم يكد ينال شهادة الحقوق حتى كان له حديث في جريدة (جازيت دي تولوز) التي تصدر في تولوز حيث نال إجازة الحقوق قال فيه:

" أما السبب في تمضيتي سنتين في سنة واحدة فهو أني وعدت شخصًا أحترمه[١] بذلك، ولأن إرادتي رغبت في هذا العمل حتى أخرج من قيد الطلب على ميدان العمل والدأب، ومتى عدت إلى مصر أنضم في الحال إلى صفوف المحامين لأني ممن يزدرون الحكومة المصرية الحاضرة ولا يرون التوظف فيها أو الاستظلال بظلها، وكيف لا يكون الأمر كذلك والموظف منفذ لإرادة من اغتصب أثمن وأقدس شيء لديكم وهو الدستور".

وقد علقت جريدة (جازيت دي تولوز) على هذا الحديث بقولها:

---

(١ ) يقصد أخاه حسين واصف باشا.



obeikandl.com

" هذا الكلام مصطفى كامل المصري الذي ألقاه بترو وتبصر، ولو أنه تحمس في الجزء الأخير حماسة تدل على قوة الوطنية عند المصريين وأنهم استفادوا كثيرًا من الدروس التي تلقوها على أساتذة منا".

نشرت جريدة دي تولوز حديث الفقيد، وكان وقتئذ قد أتم العشرين من عمره، وظهر من حديثه أنه أعد نفسه للدفاع عن مصر أما الرأي العام الأوروبي، وأنه سيوجه نصيبا من جهوده للدعاية لمصر في الخارج، لأن هذا النوع من الجهاد فضلا عما له من الأثر البعيد في أوروبا وفي مصر، فإنه يرفع من شأن مصر أمام العالم الأوروبي. ولا غرو فقد كان الفقيد بوطنيته وكفايته خير من مثل الأمة المصرية وترى بداية هذا الأثر فيما نشرته جريدة دي تولوز عنه وعن مصر يوم أن نشرت حديثه، إذ قالت:

"بين الذين نجحوا في كليتنا الحقوقية شاب مصري وهو مصطفى كامل، وهذا الشاب لم يكن من الذين قيدوا في الكلية من مبدأ دراسة الحقوق، بل هذه أول مرة له فيها، ومن يعلم أنه أمضى في شهر يوليه الماضي امتحان السنة الثانية أمام كلية باريس بنجاح باهر، فإنه يدهش دهشا كبيرًا لهذا الذكاء النادر، ومع ذلك فلا يعجب قراؤنا، فإن تاريخ مصر يحوي الكثير من النظريات العلمية الكبيرة التي تدل على مبلغ تقدم العلوم والمعارف عند المصريين وسمو مداركهم من زمن بعيد، وهؤلاء مواطنونا الفرنسيون الذين عاشوا في مصر واختلطوا بأهلها وأبنائها بصفتهم أساتذة في مدارسها قد صنفوا التآليف الكثيرة في دفائن الذكاء المصري، حتى رفعوه فوق كل ذكاء، والظاهر أن اعتدال الإقليم سبب من الأسباب التي أوجدت في المصريين هذا الذكاء النادر، فأمة كهذه الأمة لها شهرة تاريخية كبيرة، فضلا عن ميل أبنائها على فرنسا ورغبتهم الأكيدة في الحصول على العلوم الحديثة من منابعها الفياضة لابد أن تسترجع مجدها هؤلاء الأبناء الذين نعجب بهم كثيرًا ونجلهم إجلالا كبيرًا، وليس في وسعنا بعد الذي شاهدناه من ذكاء "مصطفى كامل" غلا أن نهنئ مصر به، ونرجو له النجاح التام في العمل الذي يريد به خدمة بلاده لأن الغيرة التي شاهدناها على محياه، والطلاقة التي تشير على مستقبله الباهر، والتي تدل بأوضح بيان على أنه من الين وهبوا قوة الخطابة، لابد أن ترفعه إلى مصاف مشاهير الرجال، ثم لا ينسى القارئ أنه يبدو على سيما مصطفى كامل الصفاء التام في القول والفعل، وأن قلبه لا يزال طاهرًا كريمًا، وفوق ذلك فإن آدابه الشرقية الجميلة وتحيات نظراته الساحرة قد هذبت علمه الغربي تهذيبًا لم نره في حياتنا إلا قليلاً، وإن مدينة تولوز لتفخر بأن تسجل في عداد الذين تخرجوا من كلياتها شابا كهذا الشاب نقي الفؤاد، متصفا بكل ما يزن المرء من علم وأدب ورأي صائب".

## جهاده بعد عودته إلى مصر

عاد الفقيد إلى مصر في ديسمبر سنة ١٨٩٤ معتزمًا أن يهب حياته كلها للجهاد في سبيل مصر، ولئن قيد اسمه في جدول المحامين [١] فإنه لم يترافع في قضية لفرد قط، ولم يحترف المحاماة أمام المحاكم، بل شغلته رسالته القومية عنها، إذ انصرفت جهوده للمحاماة عن القضية الوطنية، وقد كانت هذه نتيه التي عقد عليها عزمه منذ حصوله على شهادة الحقوق، قال في هذا الصدد من كتاب له على محمود بك أبو النصر بتاريخ ٤ فبراير سنة ١٨٩٥، أي عقب حصوله على شهادة الحقوق ببضعة أشهر، "لعلك تسألني عن أخباري الخصوصية، فأقول إني تقررت من نحو شهر محاميا ولكن لم أترافع إلى الآن ولن أترافع، ولست أدري أيحقق الله لي آمالا تخالج فؤادي ليلا ونهارا، أعقد أنها إن تحققت أنقذت الوطن من الخطر وأعادته على منشأة الأول وأحسن، وسوف تعلمون كنه هذه الآمال".

## دراسته المسألة المصرية

حدثنا على بك فهمي كامل شقيق الفقيد في كتابه انه لم استقبله في الإسكندرية عند رجوعه وجد معه ضمن متاعه صندوقين كبيرين مملوءين بالكتب القديمة والحديثة في تاريخ المسألة المصرية وسياسة الأمم، وفيهما مذكرات بعضها لكبار السياسيين وبعضها من مكتبة باريس وبعضها من وزارة الخارجية الفرنسية، وبعد أن استقر به المقام في القاهرة وانتقل إلى منزل استأجرته العائلة خلف قسم المنشية (بعمارة خليل أغا) كان لا يفتأ يدرس الكتب والمذكرات التي أحضرها معه.

وقد أكب على هذه الدراسات، كأنه لا يزال في دور الدراسة، ولا غرو فإنه قد أعد نفسه ليكون باعث الحركة الوطنية والمحامي عن القضية المصرية، فلا بد أن يدرس كل ما كتب عن هذه القضية شأن المحامي النزيه الذي يعني بدرس قضيته ليجيد الدفاع عنها، ولم يكن للفقيد سوى قضية واحدة شغلته طول حياته، بل قضت على زهرة شبابه، تلك هي قضية مصر الكبرى.

أكب الفقيد على هذه الكتب يدرسها ويستوعب ما بين دفاتها بذكائه النادر وقوة عزيمته، ووضع لنفسه برنامجا للعمل سار عليه، فكان يعمل يوميًا ثماني ساعات في مكتبه، ذلك أنه

---

(١) جاء في "المؤيد" عدد ٣١ ديسمبر سنة ١٨٩٤ ما يأتي" "قررت لجنة انتخاب المحامين قبول حضرة الفاضل الأديب مصطفى أفندي كامل صاحب جريدة (المدرسة) والحائز للشهادة النهائية في الحقوق محاميا أمام المحاكم الابتدائية وهو من نخبة الشبان الأذكياء النجباء".



obeikandl.com

يستيقظ في الساعة السادسة صباحًا فيؤدي صلاة الصبح، ثم يتناول الفطور، ويقصد كوبري قصر النيل للرياضة، ثم يعود في السابعة ويأخذ في المطالعة والعمل، فيستمر بين قراءة وكتابة وتدوين مذكرات إلى الظهر ثم يتناول الغذاء، وينام إلى الساعة الثالثة، ثم يستأنف المطالعة حتى الساعة الخامسة، وبعدئذ يزور أخوانه وأصدقاءه، ويعود في السابعة مساء ليعاود القراءة مرة أخرى على الساعة التاسعة، ثم يتناول مع أفراد الأسرة طعام العشاء، ويقضي السهرة معهم ومع الزائرين حتى منتصف الليل، ثم يأوي إلى فراشه.

وقد نضج فكره في هذه الدراسات العميقة، فكانت عدة له في الكفاح، إلى جانب إخلاصه وقوة يقينه، ومواهبه الخطابية والصحافية.

* * *

obeikandl.com

# الفصل الرابع

# جهاده سنة ١٨٩٥

obeikandl.com

كانت سنة ١٨٩٥ من أهم سني جهاد الفقيد في مرحلته الثانية، وعلى أنها ألوى سنوات هذه المرحلة الكبيرة فإنها حفلت بأعمال جليلة دلت على مبلغ إيمانه واضطلاعه بمهمته السامية.

## حديثه مع الكولونل بارنج

بدأت أعماله في تلك السنة بنشر حديث له مع شقيق اللورد كرومر، وهو الكولونيل بارنج على ظهر الباخرة التي أقلته عند عودته إلى مصر، إذ التقى به وانتهز فرصة مقابلته إياه ليرفع صوته بالدفاع عن استقلال مصر، ونشر هذا الحديث بعد عودته إلى مصر [١]، وخلاصته أن الكولونل بارنج يرى ضرورة بقاء الاحتلال، وأن الفقيد يرى ضرورة الجلاء، وإنه حق لمصر وواجب على انجلترا، وفاقا لعهودها واحتراما لمواثيقها، وقد سأله الكولونيل بارنج خلال الحديث من للمصريين من الأنصار أو السفراء في أوروبا يعتمدون عليهم في قرب تحقيق الجلاء؟ فقال الفقيد:

" لنا أوروبا بأسرها التي تناديها صوالحها العديدة بأن تنصرنا بنصرة تلك الصوالح التي سعيتم من يوم احتلالكم البلاد في تقويض أركانها، على أنها إن لم تنصرنا فإن لنا من حقنا واتحادنا بوصف أننا أمة عظيمة ذات حضارة قائمة مأثورة ما نبلغ بهما على ما ناصبو من حرية واستقلال".

وقد نشر هذا الحديث في الأهرام، فكان لنشره دوي كبير في المحافل الوطنية.

## نشر الدعوة الوطنية

وقد استمر الفقيد في دراسة الكتب التي وضعت في المسألة المصرية، وأخذ يراسل الأهرام والمؤيد وينشر فيهما المقالات الوطنية، وكثر معارفه من المعجبين بذكائه ووطنيته، وأخذ يتصل بهم ويباحثهم في شئون مصر، ويحثهم على مقاومة الاحتلال، فاتسع نطاق المعارضة، وتعرف على كثير من الأشخاص البارزين في المجتمع من الكتاب والأدباء، وأعضاء مجلس شورى القوانين والأعيان، وكان يسافر كل أسبوع أو أسبوعين إلى الأقاليم تلبية لنداء مواطنيه ويبث دعايته بين الأعيان، فكان لجولاته هذه أثر كبير في ازدياد أنصاره.

---

(١ ) الأهرام عدد ٢٨ يناير سنة ١٨٩٥.



obeikandi.com

## احتجاجه على تأليف المحكمة المخصوصة

وفي ٢٥ فبراير من تلك السنة استصدر اللورد كرومر من الحكومة المصرية مرسومًا بإنشاء (المحكمة المخصوصة) لمحاكمة من يتهم من الأهالي بالتعدي على ضباط وجنود جيش الاحتلال بمصر، وهي المحكمة التي صار لها شأن كبير في حادثة دنشواي المشهورة كما سيجيء بيانه، وينص المرسوم على تأليفها برياسة وزير الحقانية، وعضوية المستشارين القضائي (الإنجليزي)، وقاض انجليزي من محكمة الاستئناف الأهلية، والقائم بأعمال المحاماة والقضاء في جيش الاحتلال البريطاني بالقاهرة أو الإسكندرية، أي أن الغالبية فيها للإنجليز وقد جعلوا لها نظامًا خاصًا، فلا تتقيد بأحكام قانون العقوبات.

كان إنشاء هذه المحكمة بمثابة انتقاص لسلطة القضاء المصري وتثبيت لأقدام الاحتلال فتقدم الفقيد جميع المصريين بالاحتجاج على تأليف هذه المحكمة الشاذة التي أثارت سخط الأمة، ونشر احتجاجه في جريدة الأهرام [١] تحت عنوان (صواعق الاحتلال).

## حضور النائب الفرنسي دلونكل

## (مارس سنة ١٨٩٥)

وفي مارس من تلك السنة جاء مصر نائب شهير من أعضاء البرلمان الفرنسي وهو المسيو فرنسوا دلونكل، للإطلاع على حالة مصر السياسية، وكان الفقيد قد تعرف به بباريس في صيف سنة ١٨٩٤، إذ كان يؤدي امتحان الحقوق، وعرف عنه معارضته للسياسة الإنجليزية، وبخاصة في الشرق، وقرأ مقالاته في الصحف الفرنسية ومناقشاته المهمة في مجلس النواب الفرنسي عن المسألة المصرية، فعنى بإحاطته بكل صنوف الحفاوة ليكون في حضوره والحفاوة به مظاهرة قومية ضد الاحتلال الأجنبي، فسافر إلى الإسكندرية مساء الخميس ٢١ مارس سنة ١٨٩٥ لاستقباله، والتقى به على رصيف البحر في صبيحة اليوم التالي، يصحبه كثير من الوطنيين، وقدم له ولقرينته جميع إخوانه المصريين، وكان للنائب القادم مكانة رفيعة في نفوس الفرنسيين، فكن في استقباله قنصل فرنسا في الثغر مع موظفي القنصلية وكثير من النزلاء الفرنسيين، وقد رافقه الفقيد في كل روحاته وغدواته بمصر، وكان يقدم له إخوانه ومعارفه من الوطنيين.

---

(١) عدد ٤ مارس سنة ١٩٨٥.



obeikandl.com

وقد أقيمت الحفلات والولائم للمسيو دلونكل، ومكث بمصر زهاء عشرين يوما ألقى في خلالها عدة خطب طعنا في السياسة البريطانية، وأقام بالقاهرة وليمة بفندق (نيو أوتيل) قبيل رحيله إلى فرنسا دعا إليها لفيفًا من الصحفيين الوطنيين، ألقى فيها الفقيد خطبة بالفرنسية شكره فيها على دفاعه عن القضية المصرية وبارح النائب الفرنسي الإسكندرية قاصدًا فرنسا يوم السبت ٢٣ إبريل سنة ١٨٩٥.

## سفر المترجم إلى باريس
## ودعايته للقضية المصرية في أوروبا
## (مايو سنة ١٨٩٥)

رأى مصطفى أن الدعاية للقضية المصرية في الخارج من أمضى الأسلحة في مجاهدة الاحتلال، لأن المسألة المصرية كانت مجهولة للرأي العام الأوروبي، بل كانت الفكرة الذائعة عن المصريين أنهم راضون عن الاحتلال، وأنهم أمة قانعة بالحكم الإنجليزي، ليست لها آمال ولا حقوق تطالب بها، فنشط إلى تعريف الرأي العام الأوروبي بحق مصر في الاستقلال، وبأن الأمة المصرية تكره الاحتلال، ولا ترضى به بحال، وأن بقاءه لا يضر بمصر فحسب، بل يضر بالمصالح الأوروبية عامة، وقد كان لدعايته اثر كبير في إحراج مركز الاحتلال، وإبراز عدم مشروعيته، كما كان لها صداها في مصر ذاتها، إذ كانت وسيلة لنشر الحركة الوطنية، لذلك كانت دعايته في أوروبا من أهم صفحات جهاده الوطني، وكانت في الوقت نفسه من دلائل عبقريته، لأن اتصال شاب في سنه بأقطاب السياسة في أوروبا من كتاب وسياسيين وأدباء وصحفيين، واستطاعته الدفاع عن القضية المصرية على صفحات الجرائد الأوروبية، كل ذلك ليس من المهام السهلة التي يضطلع بها كل من يريد، وإنما هو عمل شاق يتطلب استعدادًا وكفايات متعددة وجهودًا هائلة، إذا اجتمعت في شخص واحد كان ذلك آية عبقريته، ولا غرو فهو أول مصري أسمع العالم صوت مصر، وعرف الرأي العام الأوروبي من مقالاته وأحاديثه وخطبه أن على ضفاف النيل أمة تشكو الاحتلال وتطلب الحرية والاستقلال.

كان الفقيد أول من فكر في وجوب الدعاية لمصر في الخارج، وأول من أدى هذا الواجب الكبير، قال في هذا الصدد في كتاب له نشر بجريدة المؤيد [1].

---

(١) عدد ٥ أغسطس سنة ١٨٩٥.



obeikandi.com

"إن عقلاء الإنجليزي شعروا بخطر احتلال مصر على دولتهم ولا ينقصهم غير معرفة إحساسات الأمة المصرية وحقيقة آلامها وآمالها وحقائق الأمور حتى يقيموا القيامة على حكومتهم ويسألوها الجلاء عن وادي النيل، فأجل عمل يأتيه المصريون اليوم هو نشر الحقائق في أوروبا بأكثر اللغات انتشارًا خصوصًا باللغتين الإنجليزية والفرنسية حتى يتيسر لنا خدمة الوطن العزيز الذي في خدمته خدمة الحق، وفي نصرته نصرة الفضيلة والحقيقة والسعادة القومية".

سافر المترجم إلى فرنسا في مايو سنة ١٨٩٥، وقصد إلى باريس ليرفع فيها صوت الوطن، وهنا اتصل بكثير من رجال السياسة والصحفيين ليعاونوه في أداء رسالته، كتب في هذا الصدد إلى شقيقه على بك كتابا من باريس قال فيه "إني الآن أقضى ليلي ونهاري في مخالطة كبار السياسيين لأنتفع منهم بخدمة مصر المحبوبة، والحمد لله قد تشرفت بمعرفة الكثيرين ورأيت من الجميع استعدادًا لمعاونتنا وتحريك المسألة المصرية وطرحها على بساط المناقشة من جديد، إني أجد من نفسي قوة في هذه الأيام ما وجدتها في حياتي، كأن الله يريد أن يكون العامل لبلاده قويا حتى يقاوم هذه الحركة الهائلة، بيد أني أشعر من جهة أخرى بأن البلاد في حاجة لرؤوس وألسنة وأقلام مصرية كثيرة حتى يقرب للبعيد بما تحدثه في العالم من تأثير ولي الأمل أن ينتشر الشعور في البلاد بسرعة، فإنه هو وحده رأس مال محرري الأمم والشعوب، وبدونه لا يستطيع خادم مهما كانت أمانته وقوته أن يصل إلى الغرض المرجو، ولذلك يجب على أغنياء البلاد الذين هم مدينون لمصر بما لديهم من ضياع شاسعة وأراض واسعة أن يؤسسوا المدارس العديدة على أساس من الدين القويم والتربية السليمة، وأن يقوم كبار العلماء بنشر الكتب المفيدة، ومهرة الكتاب بإنشاء الصحف الصادقة في خدمة قطر هو أثمن وأغلى الأقطار".

وكانت مهمة مصطفى في رحلته شاقة. لأن صغر سنه، وتقدمه أعلام مصر البارزين وقتئذ في حمل علم الجهاد بأوروبا، جعل الكثيرين منهم يحيطون مهمته بالتشكيك في نتيجتها والتهوين من شأنها، كتب صديقه فؤاد بك سليم (باشا) يصف موقفه وقتئذ بقوله [1]: "إنما الأعمال بالنيات، حياة طيبة أو موت شريف، هذه كانت إحساسات الشاب مصطفى كامل ودواعي سفره، بارح القطر المصري في أول شهر مايو الماضي (سنة ١٨٩٥) قاصدًا أوروبا، نائبًا عن أهله وأحبابه، مضحيًا نفسه وكل ما تملك يداه في سبيل خدمة وطنه والمدافعة عن حقوق أمته، فإن كان صغر السن كال ما يؤخذ عليه، فليس من ذلك ذنبه، وإن لم يكن من الطبقة الأولى في مصاف الأمة فإنما نهضته تشرفه".

---

(١) المؤيد عدد ٣١ يوليه سنة ١٨٩٥.



obeikandl.com

# نداؤه إلى مجلس نواب فرنسا

# (يونيه سنة ١٨٩٥)

ابتكر مصطفى طريقة للدعاية للقضية المصرية كانت أقوى أثرًا من مئات المقالات يكتبها في الصحف أو عشرات الخطب يلقيها في المحافل، وكانت مادة لنشر المقالات الجمة عن المسألة المصرية، ذلك أنه وضع نداء إلى فرنسا في شكل صورة رمزية سياسية قدمها إلى مجلس نوابها تمثل مصر ترسف في قيود الاحتلال وتستصرخ فرنسا لتعاونها على تحريرها، كما عاونت أمريكا وإيطاليا واليونان وبلجيكا على نيل حريتها من قبل، وجعل في ذيلها ثلاث أبيات كتبت بالعربية وكتبت أمامها ترجمتها بالفرنسية، ولم يكن الفقيد شاعرًا يقرض النظم، ولكن وطنيته ألمهمته وضع هذه الأبيات التي تبدو عليها الفطرة وعدم التكلف وهي:

أفرنسا يا من رفعت البلايا عن شعوب تهزها ذكراك

انصري مصر إن مصر بسوء و احفظي النيل من مهاوي الهلاك

وانشري في الورى الحقائق حتى تجتلي الخير أمة تهواك

وضع مصطفى الصورة وطبع منها عدة آلاف من النسخ، وذهب هو وستة من إخوانه المصريين الذين كانوا مقيمين بباريس إلى سراي مجلس النواب يوم الأربعاء ٤ يونيو سنة ١٨٩٥ لتقديم الصورة والكتاب المتصل بها، فقابلهم المسيو بريسون رئيس مجلس النواب، وتسلم منه الكتاب والصورة، وأبدى عطفه على الأماني القومية المصرية، وأرسل مصطفى عقب المقابلة نسخًا من الصورة وللكتاب إلى جميع صحف العالم، كما وزعها على جميع النواب والصحفيين والسياسيين في فرنسا، وإرسال الآلاف منها لتوزيعها في مصر، وهذا نص الكتاب:

obeikandl.com

حضرة الرئيس:

" إني بأشد انفعال يخالج القلب تأثيره أتشرف بأن أقدم لمجلس النواب الذي أنت له نعم الرئيس هذا اللوح الذي يمثل مصر طالبة من فرنسا أن تكون لها خير عضد يساعدها على استرجاع حريتها واستقلالها، وإن هذا اللوح ليمثل لدى مجلس النواب حالة أمة ناشئة غيور على حريتها المسلوبة بغير حق منذ ثلاثة عشر عاما، ولقد برهنت الأمة المصرية يا حضرة الرئيس مع ما يعتريها من المصائب الشديدة على سكينة وصبر عجيبين استمالت بها قلوب الأمم الأوروبية، ولكن لما اعتراها النصب جاءت مستغيثة بفرنسا. هذه الدولة العظيمة التي أعلنت حقوق الإنسان، والتي سارت به منذ قرن في سبيل التقدم والمدنية، جاءت الأمة المصرية تستغيث بهذه الأمة الكريمة التي حررت عدة من الأمم فهل تجاب على استغاثتها وتضرعها؟

"وهل لفرنسا أن تؤدي بهذا العمل الجليل مكانتها في العالم الإسلامي الواثق بها؟ على أن ذكر اسم مصر فعندما تكون حرة مستقلة بجانب أسماء الأمم العديدة التي حررتها فرنسا ليس بالفخار القليل لها، فلتحي فرنسا محررة الأمم".

كان لهذا العمل دويّ هائل في أوروبا وفي مصر، لأنه نداء غير مألوف من أمه كان الظن الغالب أنها راضية بالاحتلال، وقد نوهت بذلك جميع الصحف الفرنسية وكثير من الصحف في أوروبا وأمريكا فكان هذا النشر أكبر دعاية للقضية المصرية.

obeikandl.com

**الصورة الرمزية التي قدمها مصطفى كامل**

**إلى مجلس نواب فرنسا – يونيه سنة ١٨٩٥**

وأهمية هذا العمل أنه لفت أنظار العالم إلى المسألة المصرية، وفي الحق أن هذا النداء كان أول صوت للشعب المصري دوى في أوروبا عقب الاحتلال مطالبًا باستقلال مصر وحريتها، ولم يكن ممكنًا أن يرتفع صوت مصر بأكثر ولا أقوى مما ارتفع وقتئذ بهذا النداء وتناقل صداه في الصحف على جميع الآفاق، فلقد كان استصراخاً للإنسانية يشبه استصراخ بولونيا للعالم إبان محنتها القومية، وإن دعاية الفقيد للقضية المصرية في أوروبا بهذه الهمة وهذا الإقدام، وهو بعد في الحادية والعشرين من عمره، لأكبر مظهر من مظاهر عبقريته، فإن العمل الذي اضطلع به وحده قد تنوء به الجماعات والأحزاب، وقد لفت هذا العمل أنظار المصريين على شجاعة هذا الشاب وعلو همته، ودهشوا لجرأته، إذ نهض لمقاومة المحتلة في وقت كان أغلب كبراء مصر وعظمائها خاضعين للقنصل البريطاني العام، فهذه الشجاعة التي بدت من مصطفى قد حببته على نفوس المصريين وأخذ نداء الوطنية والاستقلال يلقى فيهم ملبيًا وسميعًا.

## حديثه في جريدة الجورنال

## (يوليه سنة ١٨٩٥)

وقد نشرت له جريدة (الجورنال) الفرنسية وهي من أوسع الصحف انتشارًا حديثًا سياسيًا عن مصر والمسألة المصرية كان له تأثير كبير في تبصير الرأي العام بمساوئ الاحتلال البريطاني، وعلقت عليه جريدة (الإكلير) الفرنسية بقولها:

"لابد أن سيكون لمصطفى كامل المصري دور مهم في المسألة المصرية لأن أسلوبه السياسي قائم على الصراحة والحق، فهو يذكر بشجاعة وجلاء تلك المظالم الواقعة على المصريين من جراء الاحتلال الإنجليزي الذي كلما مرت عليه السنون تجسمت فيه صروف الاعتداء على حقوق الناس".

**مصطفى كامل في الحادية والعشرين من عمره**

obeikandl.com

# خطبته في تولوز

# أول خطبة سياسية له في أوروبا

# (يوليه سنة ١٨٩٥)

لم يكتنف الفقيد بجهاده بقلمه في الصحف، بل عمد على الخطابة في المحافل، فأقام اجتماعًا يوم ٤ يوليه سنة ١٨٩٥ بمدرج كلية الآداب في تولوز [١] التي نال منها شهادة الحقوق، دعا إليه بعض أساتذة الحقوق وكبار الصحفيين والكتاب وذوي الرأي فيها، وألقى بالفرنسية خطبة مسهبة، هي أول خطبة سياسية لمصري في أوروبا ذكر فيها اعتداء الاحتلال على حقوق مصر واستقلالها، وأبان مبلغ نقض انجلترا لعهودها في الجلاء، وتغلغلها في شئن مصر الداخلية في مختلف الوزارات، واستنجد بأوروبا وفرنسا لمعاونة مصر في استرداد استقلالها، وشكر المدعوين على عطفهم على القضية المصرية [٢]، فأعربوا له عن عواطفهم نحوه ونحو مصر، قال رئيس تحرير جريدة (الدبيش) التي تصدر في تولوز في هذا الصدد:

"إني واثق كل الثقة بأن هذا المدافع عن حقوق مصر المسلوبة سيغرس لا محالة بعمله بذور الوطنية الصالحة حتى يقضي الشعب المصري لبانته ويسمع يوما الحكم له على انجلترا، ولذلك أدعو زملائي أصحاب الصحف على تهنئة زميلنا الشاب الغيور منذ الآن". ولقد كان لهذه الخطبة اثر كبير في فرنسا لأنها جاءت صدى للوطنية الصادقة التي يحترمها الجميع في فرنسا.

---

(١) بشارع ريموزا.

(٢) نشر المؤيد خلاصتها – عدد ١٠ و ١٣ يوليه ١٨٩٥، وطبعت بالفرنسية في رسالة مستقلة في عشرين صفحة.



obeikandl.com

# في فيينا

# (يوليه سنة ١٨٩٥)

لم يقتصر مصطفى على الدعاية للقضية المصرية في فرنسا، بل قصد النمسا ونزل بفينا عاصمتها في يوليه سنة ١٨٩٥، واتصل بكبار الصحفيين والسياسيين، وأخذ ينادي بحق مصر في الاستقلال وبدافع عن كرامتها وحريتها.

كتبت جريدة (اكسترا بلاط) في عددها الصادر بتاريخ ٢٨ يوليه سنة ١٨٩٥ تقول:

"إن فينيا اليوم ضيفًا كريمًا هو مصطفى كامل" أحد كتاب مصر الفضلاء، وهو شاب حاد الفكر بعيد النظر اشتهر اسمه في وطنه وفي أوروبا أخيرًا، وهو الآن يجوب القارة الأوروبية مطالبًا باسم الوطنيين المصريين بتحير بلاده من ربقة الاحتلال الإنجليزي، ويدهي أن الأمة التي ينتسب إليها هذا الكاتب الشرقي قد استحقت بما أفادته من معاهد المدنية وبما لها من الذكاء الفطري النادر المثال أن تعد في مصاف الأمم المتمدنة فهي بذلك لا ترضى أن تكون تحت سيطرة حكومة أجنبية تعمل في مصر كل ما تريد".

وكتب عنه مراسل جريدة (الستاندرد) الإنجليزية في فينيا ما يأتي "جاء مصطفى أفندي كامل وهو قانوني ومحرر جريدة إلى فينيا وأقام فيها عدة أيام، وقد جال في كثير من أنحاء أوروبا نائبا عن جمعية وطنية في مصر تسعى لتحرير بلادها من نير الإنجليز وبذلك جهده في استمالة الدوائر الرسمية على آراء وأفكار هذه الجمعية الوطنية".

## رسالته في أخطار الاحتلال البريطاني

عاد الفقيد إلى باريس في ٨ أغسطس سنة ١٨٩٥ ونشر رسالة بالفرنسية بتاريخ ١٤ أغسطس عن (أخطار الاحتلال البريطاني) أبان فيها خطر الاحتلال على حقوق مصر، ثم على المصالح الأوروبية عامة، وقد وجه فيها الخطاب إلى الرأي العام الأوروبي ليكسب تأييده للقضية المصرية [١]، وقد طبع هذه الرسالة وبعث بها إلى جميع رجال السياسة والصحف الشهيرة في أوروبا، فكان لها دويٌّ كبير، وجاءه نحو مائة جواب من مشاهير السياسيين في فرنسا وغيرها يلعنون له فيها شكرهم وتهنئتهم.

---

(١) نشر المؤيد تعريبها في عدد ٢٨ أغسطس ١٨٩٥.



obeikandl.com

## أحرار في بلادنا، كرماء لضيوفنا

وفي هذه الرسالة قال كلمته الخالدة عن شعار مصر ومعاملتها لنزلائها الأجانب (أحرار في بلادنا، كرماء لضيوفنا).

والرسالة تتضمن شرحا وافيًا للمسألة المصرية، وتدل على واسع اطلاعه على تاريخها ودقائقها، كما تدل على نضجه الفكري وبعد نظره السياسي، وحسبك دليلاً على قيمتها ما كتبته عنها مدام جولييت آدم، فقد قدمها إليها عند ما تعرف بها، فنشرت عنها في جريدة (البتي مرسلييه) الفرنسية بتاريخ ١٧ سبتمبر سنة ١٨٩٥ كلمة ثناء قالت فيها: "إن هذا العنوان (أخطار الاحتلال البريطاني) علم على رسالة صغيرة الحجم لا يتجاوز عدد صفحاتها الأنثى عشر صفحة، كتبها مصري وطني يحب بلاده حبًا شديدًا، وقد جاء ليدافع عنها إذ رآها فريسة أغراض الأجنبي، وأودع هذه الرسالة كل ما ينتجه الفكر السليم والتبصر القائم على أدلة وحجج تفحم الذين جعلوا العمى مذهبًا لهم أو تنير ما أشكل عليهم، والعنوان الثاني لهذه الرسالة الصغيرة الحجم الكبيرة الأهمية هو (نتائج الاحتلال الإنجليزي لمصر)، وهو لا يلم بموضوع إلا وفاه حقه وزيادة، وقد قرأت منذ واقعة (التل الكبير) ما كتب عن مصر في انجلترا وفرنسا ومصر نفسها، فلم أر قط المسألة المصرية موضوعة أحسن من هذا الوضع ولا مستنتجة نتائجه أحسن من هذا الاستنتاج ولا مرتبة أجمل من هذا الترتيب ولا مبسوطة بتعقل وتدبر مثلما بسطت في هذه الرسالة".

## تعرفه إلى مدام جولييت آدم

## (سبتمبر سنة ١٨٩٥)

إن تعرف المترجم إلى مدام جولييت أدم هو حادث مهم في حياته السياسية والقومية، فإن مدام آدم هي من أعظم شخصيات فرنسا في عالم الوطنية والسياسة والأدب، وهي الكاتبة الكبيرة ذات الشهرة العظيمة والنفوذ الأدبي في فرنسا، وكان مشاهير الرجال من نواحي الأرض يرحلون إليها ويجتمع بدارها العلماء والأدباء وكبار القوم وملوك الشعر والأدب والسياسة.

obeikandl.com

ولدت مدام آدم سنة ١٨٣٦، وتوفيت سنة ١٩٣٦، أي أنها عمرت مائة عام، وهي من أعظم من أنجبتهم فرنسا علمًا وأدبًا ووطنية ومكانة سامية، وظلت موضع احترام مواطنيها طول سني حياتها، وقد وضعت سنة ١٩٢٢ كتابًا قيما عن مصر أسمته (انجلترا في مصر)، وهو من خير ما ألف في المسألة المصرية.

وقد سعى الفقيد سنة ١٨٩٥ إلى التعرف إليها، إذ أرسل إليها من تولوز أول كتاب له في ١٢ سبتمبر سنة ١٨٩٥، ننشره هنا لأنه يصور لنا مقدار وطنيته ويصف مبلغ إيمانه برسالتها القومية الكبرى، في أفصح عبارة وأبلغ بيان، قال:

"إني لا أزال صغيرًا، ولكن لي آمالاً كباراً، فإني أريد أن أوقظ في مصر الهرمة مصر الفتاة، هم يقولون، إن وطني لا وجود له، وأنا أقول يا سيدتي إنه موجود وأشعر بوجوده بما آنس له في نفسي من الحب الشديد الذي سوف يتغلب على كل حب سواه، وسأجود في سبيله بجميع قواي، وأفديه بشبابي، وأجعل حياتي وقفًا عليه.

"إني أبلغ من العمر إحدى وعشرين سنة، وقد نلت إجازة الحقوق من تولوز قبل سنة، وأريد أن أكتب وأخطب وأنشر الحمية والإخلاص اللذين اشعر بهما في سبيل الوطن العزيز، وقد قيل لي أكثر من مرة إني أحاول محالاً وحقيقة تصبو نفسي إلى هذا المجال، فأعينيني يا سيدتي، فإنك من الوطنية بمكان يفردك بمزية تقدير قولي وتقوية عزمي وشد أزري، وتقبلي تحية واحترام [(١)].

---

(١) رسائل مصطفى كامل إلى مدام جوليت آدم ص٧.

**مدام جولييت آدم**



obeikandl.com

وأرسل لها ضمن كتابه رسالته عن (أخطار الاحتلال البريطاني على مصر) فلبت مدام آدم نداءه، وكتبت إليه ترحب بدعوته، فجاء وقابلها، وما إن عرفته وأدركت سمو آماله في تحرير بلاده حتى ازدادت به إعجابا، وتوثقت بينهما من ذلك الحين أواصر الاتصال الروحي، إذ كان الفقيد يعدها أما روحية له، وقد عرفته بكبار السياسيين وأصحاب الصحف والمجلات في فرنسا، قالت تصف تعرفها به:

"أعجبتني كثيرًا هذه الرسالة (أخطار الاحتلال البريطاني) فأنشأت في الخامس عشر من شهر سبتمبر سنة ١٨٩٥ مقالة عنها، واقتبست منها أسانيد جديدة في المسألة المصرية، وقد سبق لي الخوض فيها كثيرًا، وأثبتت على المؤلف في مقالتي، فورد إلى منه خطاب شكر جزيل، ومن ورائه خطاب آخر من باريس يسألني فيه أن أضرب موعدًا للقائه، فسرعان ما أجبته على ذلك، وواعدته دار "لا نوفل ريفو" [١] (المجلة الحديثة)، فأقبل علىّ شاب خلته ابن ثماني عشرة سنة، فقلت له ضاحكة ما صدقتني سنك فإنك لم تبلغ الحادية والعشرين فقال: " قد بلغتها يا سيدتي وأكملتها، وبعد أن تجاذبنا أطراف الحديث رأيت أن عقل هذا الشاب قد بلغ أشده ونضج قبل أوانه ورأيت قد أطال التدبر والتروي في إمكان مصيره، كما يقول خطيب مصر، ورأيت أغراضه الجسام محالة وممكنة معًا، فإنه مع انقطاع المعين له حقيقة وحكمًا، لأنه غير معول إلا على شبان مثله لا مال لهم، كان يحدث نفسه بإنشاء جريدة ومدرسة ولا أدري بماذا كان يحدث نفسه أيضًا، وربما لاح لغير أن هذا الشاب إنما كل زاده أوهام وأحلام، ولكن جاء كتيبه دالا على أنه حقيقة، هذا ولشدة بغضي لانجلترا وحبي لمصر كنت أرتقب وأتوقع منذ سنين قومة قائم في وادي النيل، وكانت ثقتي دائما بذوي القول السديد الذين يرسلهم الله في الوقت المناسب ليزرعوا الحب الصالح في النفوس التي ظلت زمنا طويلا بورا، لقد فقه مصطفى كامل وأدرك بواطن الأطماع والدسائس الإنجليزية، وكان يتكلم عنها كأنه سياسي مسن متعود البحث عن أسباب الأمور، كفء لأن يحل ببطء ولكن بدون أن يخطئ العقد التي أحكمت عقدها مهارة عاقديها، أو ليست مساعدة وطني شاب على أن يجاهد ويؤدي مهمة عالية أحد الأغراض التي التزمت توخيها منذ أنشأت جريدتي (لا نوفل ريفو)؟ فقلت لمصطفى كامل" ضع يا ولدي مقالة في إحدى المسائل الخاصة بمصر وامض فيها واسترسل استرسالا بغير تقيد، فإن هلا يضرني منك ثورة الشباب ولا حدة اليقين".

" ومن عهد تلك المحادثة أخذت أؤدي لمصطفى كامل وظيفة الأم، فعرفته بجميع الرجال الأكابر الذين قد يعنيهم شأن مصر، وأوليته من حب الأم جميع منازل أبنائي المتقدمين عليه

---

(١) المجلة التي كانت تديرها مدام جولييت آدم.



obeikandl.com

الذين كان يختص بالمعزة منهم بييرلوتي والكولونيل مارشان، وإرنست جوديه، وأوجدت له في آن واحد علاقات نفيسة في عالم الصحافة الفرنسية، تلك العلاقات التي عرف كيف يستخدمها بأحسن سياسة في دعواه الشريفة، وأمكنه فيما بعد أن يستفيد من هذا المركز بكل مهارة في جميع البلدان الأخرى حتى في انجلترا نفسها".

واستمرت الصلة بين الفقيد ومدام جولييت آدم تقوي على مر السنين، ويدلك على مبلغ تقديره إياها ما كتبه عنها في ٢٠ أغسطس سنة ١٩٠٢ حين أهدته كتابها (طفولتي وشبابي) إذ قال:

"إذا كان يحق لكل إنسان محب لبلاده أن يحيِّي هذه السيدة تحية الإعظام والإعجاب فمن الواجب يحتم على وأنا من خدمة بلادي العزيزة أن أعرب لها عن مزيد إعجابي بعملها وبكتابها، وأن أشرك الجمهور معي ليشكرها على حبها لمصر وثقتها بوصول أمتنا المحبوبة في مستقبل الأيام على ما تبتغي من سؤدد وحرية واستقلال [١].

وقد زارت مدام آدم مصر سنة ١٩٠٤ ملبية دعوة الفقيد، فاستقبلها بالحفاوة والإكرام كما سيجيء بيانه في الفصل التاسع.

## حديثه في جريدة (الإكليز) الفرنسية

اتصل المترجم وهو في باريس بكثير من السياسيين والصحفيين الفرنسيين ليضمهم إلى صف القضية المصرية، وقد حدث أن قررت الحكومة المصرية في أواخر أغسطس سنة ١٨٩٥ إلغاء البعثة المصرية إلى فرنسا، فقصدت إليه جريدة (الإكليز) الفرنسية الكبيرة ونشرت له حديثًا بالعدد الصادر في ٩ سبتمبر سنة ١٨٩٥ حمل فيه على الاحتلال وسياسته وبخاصة في التعليم، قدمت له بقولها:

"ورد علينا في الأسبوع الماضي تلغراف من الإسكندرية يفيد أن وزارة المعارف في مصر قررت إلغاء الإرسالية المصرية في فرنسا، ولما كان لهذا القرار مساس عظيم بنفوذنا في مصر فقد رأينا من المفيد أن نقصد من أجله إلى (مصطفى كامل) وهو الكاتب والخطيب المصري الذي اشتهر اسمه في باريس، لأن آراءه في مثل هذه المسألة يعول عليها" [٢]

---

(١) اللواء عدد ٢ سبتمبر ١٩٠٢.

(٢) المؤيد عدد ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٩٥.



obeikandl.com

وقد كان لهذا الحديث تأثير كبير في فرنسا وتناولته الصحف الفرنسية، وكان موضع اهتمامها، ونشرت له جريدة (الجولوا) حديثًا له في شئون مصر السياسية، وأخذ ينشر المقالات في مجلة "لا نوفل ريفو" وهي مجلة مدام جولييت آدم.

## خطبته في الجمعية الجغرافية بباريس

## (ديسمبر سنة ١٨٩٥)

وألقى في الجمعية الجغرافية بباريس يوم ١١ ديسمبر سنة ١٨٩٥ خطبة كبرى بالفرنسية موضوعها الاحتلال الإنجليزي في مصر)، وذلك في اجتماع حافل حضره مشاهير السياسيين ولكتاب والعلماء والنواب في فرنسا، وكثير من نزلاء باريس، فقوبلت بالتصفيق والاستحسان، واقتبست الصحف الباريسية كثيرًا من فقراتها، ومما يذكر عن هذا الاجتماع أن مصطفى كامل دعا إليه ضمن من دعاهم الفيلسوف الفرنسي الشهير (جول سيمون) وكان يبلغ وقتئذ الحادية والثمانين من عمره [١]، فأرسل إليه كتاب اعتذار قال فيه: "إن كبر سنه وهو في الحادية والثمانين يمنعه عن الحضور ولكنه لا يمنعه من أن يقول إنه أكثر الناس حبًا لمصر واهتمامًا بشأنها".

* * *

(١) ولد سنة ١٨١٤ وتوفي سنة ١٨٩٦.



obeikandl.com

# الفصل الخامس

# جهاده سنة ١٨٩٦

obeikandl.com

استمر الفقيد ماضيًا في جهاده، فحفل عام ١٨٩٦ بمثل ما حفل به عام ١٨٩٥ من الجهود الجبارة في بعض الحركة الوطنية.

## خطابه إلى جلادستون في شأن الجلاء

## (يناير سنة ١٨٩٦)

فكر وهو في باريس أن يواجه المستر جلادستون شيخ الأحرار في انجلترا– وكان قد اعتزل الوزارة– يذكره بآرائه في الجلاء، حين كان رئيس الوزارة البريطانية سنة ١٨٨٢ وأدلى بتصريحات عدة في البرلمان الإنجليزي بأن انجلترا لا تنوي نقض عهودها في الجلاء، فأرسل إليه الخطاب الآتي تعريبه:

"باريس في ٢ يناير ١٨٩٦

" سيدي المبجل

" اسمحوا لأحد أبناء وادي النيل، لوطني لا أمنيت له إلا تحرير بلاده، أن يقصدكم اليوم ليسألكن رأيكم عن حل مسألة مصر، فقد كنتم منذ احتلت انجلترا وطننا أشد نصراء الجلاء، وجاهرتم مرارًا عديدة بأعلى صوتكم أنه لا يليق ببريطانيا العظمى أن تحتل مصر إلى أجل غير محدود، فإن عملا كهذا يمس شرفها أشد المساس.

"لقد سجلنا كل تصريحاتكم في هذا الصدد ولو أنكم لم تستطيعوا الوفاء بوعودكم عندما كانت السلطة في يدكم لأسباب نجهلها جهلا تمامًا، فإننا لا نزال نظن أن اعتقادكم الآن كاعتقادكم في سالف الزمن، أي أنه ليس لمسالة مصر إلا حل واحد وهو الجلاء.

" ولهذا رأيت من المفيد أن أرجو منكم في هذا الوقت الذي اضطرت فيه أحوال المسألة الشرقية أن تعرفونا حقيقة إحساسكم نحو بلادنا.

"فإن كنتم لا تزالون من نصراء الجلاء كما نظن ذلك فمتى تظنون أنه يمكن تحقيق هذا الجلاء المنتظر من عهد بعيد؟



obeikandl.com

"وفضلا عن ذلك فإن تصريحًا منكم في مسالة مصر يكون له أعظم قيمة في هذه الأيام التي يحسب فيها الجم الغفير من أبناء ديننا المسلمين أنكم أكبر عدو رآه الإسلام، وإني مع انتظاري الجواب على كتابي هذا أرجو منكم أيها السيد المبجل أن تتفضلوا بقبول عظيم احترامي".

**مصطفي كامل**

## رد جلادستون

وقد أرسل المستر جلادستون على الفقيد على غير تعارف بينهما جوابا رقيقًا ردا على كتابه، أقر فيه بأن زمن الجلاء عن مصر قد وافى منذ سنين، فكان جوابه وثيقة هامة في المسألة المصرية سجلت على انجلترا مركزها غير المشروع في مصر، كما سجلت لمصر حقها في الجلاء وهذا تعريب الخطاب:

" سدي العزيز

" إني أستحسن ما فهمته من إحساساتكم نحو بلادكم باعتبار كونكم مصريا، ولكني مجرد بالمرة من كل سلطة.

أما آرائي فإنها لم تتغير قط، وهي دائما أنه يجب علينا أن نترك مصر بعد أن نتمم فيها بكل شرف وفي فائدة مصر نفسها العمل الذي من أجله دخلناها

" وإن زمن الجلاء على ما أعلم قد وافى منذ سنين.

"ولما كنت في منصبي أخيرًا رجوت مساعدة الحكومات الأخرى توصلا إلى تسوية هذه المسألة المهمة، والسلوك الذي اتبعه مسيو وادنجتون [1] في عام ١٨٩٢ شجع أملي، غير أن المخابرات لم تخط خطوة واحدة مع عظم ما أملنا إذ ذاك، ولست أدري لأي سبب.

"ولقد جاهرت بكل تصريحاتي في مجلس النواب سنة ١٨٩٣، ولم يبق عندي شيء أضيفه عليها، وقد كنت مستعدًا لعمل كل ما هو حسن في سبيل إعطائي رائي تأثيرها، إلا أنني تركت المنصب بالمرة، ولست الآن غلا احد أبناء بلادي الخصوصيين، وإني أتشرف بأن أكون لك الخاضع الصادق".

بيارتز في ١٤ يناير سنة ١٨٩٦ **و. جلادستون**

---

(١) سفير فرنسا في لندن وقتئذ.



obeikandl.com

كان لخطاب مصطفى ورد جلادستون دوي كبير في الدوائر السياسية، إذ جاء حجة على إنجلترا في إخلافها عهودها في الجلاء، وجاء شهادة قيمة من كبير الأحرار الإنجليز، الذي وقع الاحتلال في عهد وزارته، بأن لا مسوغ لبقاء الاحتلال، فكان الرد انتصارًا كبيرًا لجهاد مصطفى كامل، وقد تناولت الصحف الأوروبية الخطابين بالتعليق، وعلا شأن الفقيد إذ ظهر في أوروبا بأنه ترجمان مصر المعبر عن آمالها ومطالبها.

نشرت جريدة (الإكليز) الفرنسية في عدد ٣ فبراير سنة ١٨٩٦ مقالة للمسيو الفونس همبير نائب باريس في مجلس نواب فرنسا قال فيها:

"تبودلت مكاتبة مهمة بين مصطفى كامل والمستر جلادستون، ومصطفى كامل هو شاب مصري متعلق اشد التعلق بتحرير بلاده، وقد أقام في باريس وعرفه فيها معرفة جيدة كل الكتاب المشتغلين بمسألة وادي النيل، وأتى على خلاصة الخطابين.

وكتبت جريدة (الفيجارو) الباريسية مقالا جاء فيه:

"لقد أصبح المستر جلادستون أحد أبناء بلاده البعيدين عن السلطة كما ينادي بذلك، وسهل عليه أن يعترف بتصريح ربما ضايق اللورد سلسبري (رئيس الوزارة البريطانية) في المفاوضات الجارية دائمًا في شأن الجلاء عن مصر، فقد كتب إلى زعيم الأحرار ذلك الشاب المصري مصطفى كامل يذكره بآرائه القديمة التي كان مغزاها دائما أنه لا حل للمسألة المصرية إلا بالجلاء".

وكتبت الصحف الأخرى في فرنسا وأوروبا المقالات الضافية عن الخطابين والتعليق عليهما ونوهت بفضل مصطفى كامل في الحصول على هذه الحجة القوية من شيخ الأحرار الإنجليز ضد الاحتلال، وصار اسم الفقيد في الصحف الأوروبية علمًا على الحركة الوطنية المصرية.

obeikandi.com

# خطابه الثاني إلى جلادستون

أراد المترجم أن يسجل على المستر جلادستون تصريحه بأن الجلاء قد حان منذ سنين، ويطلب إليه أن يعمل على تحقيق ما وعد، فأرسل إليه الكتاب الآتي، وقد بعث به إليه بعد عودته إلى مصر:

"مصر في ٢٧ فبراير سنة ١٨٩٦

" أيها السيد المبجل

"اعذرني إذا كنت أكتب إليك مرة ثانية، فإن عددًا عظيمًا من أبناء وطني لما رأوا "أن زمن الجلاء على ما ترى قد حان منذ سنين" كلفوني أن أرجوك التكرم على مصر بإحداث حركة في الرأي العام الإنجليزي لمصلحة الجلاء.

"وإن الحركة الكبيرة العديمة المثال التي أحدثتها في انكلترا لمصلحة الأرمن بعض عبارات لكم في شأنهم – حيث لم تكن وقتئذ إلا أحد أبناء بلادك الخصوصيين كما تقول، لهي أعظم كفيل لنا بأن مساعدتك لمصر يكون لها أعظم فائدة.

"وإلا فهل مسلمو مصر اقل استحقاقات لرعايتك العالية من مسيحي الأرمن؟ أو هل أنت كما أشاعوا في بلاد الشرق عدو للإسلام؟ ذلك ما لا نتجاسر على ظنه.

"ولقد قلت في خطبتك التي ألقيتها في شهر أغسطس الماضي: " أنك لا تبغض المسلمين البتة، فهاهم المسلمون يأتونك اليوم حيث جاءهم الدور يسألونك أن تدافع عن مصر.

ومع ذلك أليس من الواجب على انكلترا أن تحترم هي نفسها العهود العلنية والمعاهدات الدولية الضامنة لمصر حريتها قبل أن توصي تركيا – التي تعتبرها اقل بلاد أوروبا مدنية– باحترام فقرة من معاهدة برلين مختصة بالأرمن؟

"هذا وإنني أرجوك أيها السيد المبجل أن تتفضل بقبول عظيم احترامي".

**مصطفى كامل**

لم يتلق المترجم من المستر جلادستون ردًا على هذا الخطاب، وإنما تلقى منه كتابا ثانيًا ردًا على خطاب ثالث أرسله إليه في سبتمبر سنة ١٨٩٦ كما سيجيء بيانه.

obeikandl.com

## عودته إلى مصر

## (يناير سنة ١٨٩٦)

بقي المترجم في باريس يدافع عن القضية المصرية بقلمه ولسانه حتى أوائل يناير سنة ١٨٩٦، وقد قدر لمدام آدم فضلها ومعاونتها إياه في جهاده، فبقى على وده لها طول حياته، وظلت هي على إعجابها به وبوطنيته طول حياتها، وقد أبحر من مرسيليا قاصدًا مصر فوصل الإسكندرية يوم ١٤ يناير سنة ١٨٩٦:

## كتابه إلى مدام آدم

وقبل أن يبارح فرنسا بعث إليها في ٩ يناير سنة ١٨٩٦ بكتاب من مرسيليا يدل على مبلغ تقديره لما أسدته إليه من المعونة الأدبية، قال فيه:

"سيدتي المدير المبجلة

" قبل أن ابرح هذه الأرض العزيز أرض فرنسا أعرب لك من صميم فؤادي عن جزيل الثناء على المساعدة النفسية جدًا، تلك المساعدة التي أوليتني إياها، وإنه لواجبٌ واجبُ الأداء أن أشكر بكل إخلاص عملك العظيم لوطني التعس الحزين ولشخصي المتواضع، ولا شيء يؤلمني أكثر من عجزي في الكلمات، ولولا ذلك لكنت اصف لك مقدار التأثير الذي وقع في نفسي من حسن لقائك إياي وما نلته من هذه المقابلة، وبالجملة فإنك أعلم بشعوري نحوك.

" بعد ساعة أبرح فرنسا حاملاً تذكارًا متين الدعائم، وأملي أن أعود إليها بعد أن أتمم عملي في مصر، وإني أعتمد دائمًا عليك أيتها السيدة الوطنية الكبيرة.

"وأرجو منكم أن تتكرمي بقبول أجل إكبار وأعظم اعتبار من يعتبر لك بالجميل".

**مصطفى كامل**

obeikandl.com

# أول خطبة وطنية له بالإسكندرية

# (٣ مارس سنة ١٨٩٦)

لما عاد مصطفى كامل إلى مصر عقب جهاده في أوروبا سنة ١٨٩٥، اتجهت إليه أنظار المصريين وتعلقت به آمالهم، وتفتحت بتأثير جهاده عواطف الوطنية في قلوبهم، وتردد صدى خطبه ومقالاته في أرجاء البلاد، فأخذت القلوب تلتف حوله كزعيم للحركة الوطنية ومحرر البلاد، ومناد بالجلاء، وقد اعتزم عند عودته إلقاء خطبة وطنية كبرى في مدينة الإسكندرية ليتصل بقلوب الجماهير مباشرة، ولعله اختار إلقاءها هناك لما كان يأنسه في أهلها من الحماسة والوطنية.

ذهب المترجم إلى الإسكندرية يوم ٢٨ فبراير سنة ١٨٩٦ لإلقاء خطبته، ونزل بأوتيل (آبات) بالمنشية، ولكن صديقه إسماعيل بك شيمي، وكان وقتئذ قاضيًا بمحكمة الإسكندرية المختلطة، أبى إلا أن يستضيفه بمنزله على شاطئ البحر (بجهة الأنفوشي)، فقبل الدعوة، ونزل ضيفًا كريمًا بداره، وما أن علم أعيان الإسكندرية وأهلها بمقدمه حتى أخذوا يتوافدون إلى دار شيمي بك ليظهروا للفقيد إعجابهم به، وتقديرهم لجهاده في سبيل مصر، وليعربوا له عن تأييده والالتفاف حوله، فكانت الدار مدة إقامته بها مهوى أفئدة الوطنيين، وقد ألقى خطبته يوم الثلاثاء ٣ مارس في المسرح العباسي، وكان الاجتماع حافلا بالمستمعين من صفوة القوم، وقد حضره بعض النزلاء الأجانب، وان الزحام شديدا إذا لم يبق مكان في التياترو خاليا وارتد المئات من الناس عن بابه من كثرة الزحام، وقوبلت الخطبة بالتصفيق والحماسة والاستحسان،، وكان موضوعها حث المصريين على التمسك بحقوقهم في الاستقلال والمطالبة بالجلاء واستثارة روح الكرامة والأمل في قولبهم، وقد طلب الخطيب من الحاضرين في نهاية خطبته أن يقروّا نداءه بالجلاء برفع أيديهم، فأقروا بالإجماع نداءه، فكانت مظاهرة قومية رائعة.

قال "المؤيد " في وصف الاجتماع [1]: " وبالجملة فإن جميع الذين سمعوا هذه الخطبة الشائقة أجمعوا على أن حضرة الخطيب الفاضل قد استهوى المسامع بحسن إلقائه وبلاغة منطقه وغزارة مادته ولطيف اعتداله، وقال أيضًا: "إنها الخطبة الأولى التي أقدم على إلقائها شاب مصري غيور عرف واجب الوطن وضرورة التفاني في حبه المقدس بعد أن مر على الاحتلال الأجنبي أربعة عشر عاماً".

---

(١) عدد ٤ مارس سنة ١٨٩٦.



obeikandl.com

وأطنبت جريدة (الفارد الكسندري) التي تصدر بالثغر في مدح الخطيب، ونوهت بفضله في تأليف قولب الوطنيين والنزلاء، قالت: "وهو الأمر الذي كان له أحسن وقع في النفوس الحرة لا سيما من شاب لا يتجاوز عمره اثنتين وعشرين سنة قام نائبًا عن أبناء وطنه في الدفاع عن حقوقهم".

كان لخطبة المترجم دوي عظيم في الإسكندرية، تردد صداه في أرجاء مصر، وظهر تأثيرها في نفوس الإسكندريين يوم عودته إلى العاصمة، فكان توديعه بمحطة الإسكندرية مظاهرة وطنية، إذ اجتمع على رصيف المحطة جمع كبير من الإسكندريين وفي مقدمتهم أعيان المدينة وفضلاؤها لتوديع الضيف الكريم.

## هدية الثغر إلى المترجم

وقدموا له وساما من الفضة رسم على أحد وجهيه صورة السعف المصري ومسلة الثغر، وكتب على الوجه الآخر هذه الجملة:

## برهان الإخلاص من أهالي الإسكندرية

## (للوطني الغيور مصطفى كامل)

فقبل الهدية شاكرًا، وأمطرت عليه باقات الأزهار والرياحين، وما كاد القطر يتحرك حتى هتف له الجمع الحاشد هتاف الإخلاص والحب وهو يرد التحية شاكرا.

obeikandl.com

# كتاب المترجم إلى أهالي الإسكندرية

أثرت مظاهر الحفاوة التي لقيها الفقيد من أهالي الإسكندرية في نفسه تأثيرًا كبيرًا، وأدرك منها أن دعوة الوطنية تلقى من الشعب استعدادًا لقبولها، فنشر في المؤيد كتاب شكر لهم أعرب فيه عن اغتباطه لتلبيتهم داعي الوطنية قال:

إلى أهالي الإسكندرية

"أبناء وطني الأعزاء

"يعجز قملي ولساني أن يؤديا لكم واجب الشكر على ما أظهرتموه نحوي من العواطف الشريفة، وما أبديتموه لي من علامات الود والإكرام، ولولا أني معتقد أنكم لم تقصدوا بمظاهرتكم نحو اضعف خدمة الوطن إلا إعلاء منار الوطنية ورفع شأن الوطن العزيز لكنت أخجل أن أمسك القلم وأسطر هذه السطور.

"وإن الأمة المصرية لذاكرة كلها مظاهرة "٣ مارس" الشريفة التي أظهرتم فيها رغائبكم وطالبتم بحريتكم وسعادتكم الاجتماعية، وبرهنتم على أنكم تقدرون الوطنية الصادقة حق قدرها وتعرفون مزية السكينة والاعتدال في خدمة الأوطان، فأعلموا دائمًا بهذه المبادئ السامية لنبلغ الآمال وتشرق لنا شمس السعادة والإقبال.

"وما مثلي أمامكم ومثلنا جميعًا أمام الوطن العزيز إلا كمثل رجل وجد أمه عليلة سقيمة فأحس من نفسه الحنو والشفقة عليها فقام مناديا إخوته للعمل معه لشفاء علتها حيث وجدهم جميعًا يحسون نفس إحساسه ويشعرون شعوره، ففرح بهم وفرحوا به واجتمعوا على خير أمهم المحبوبة.

"فليتم لنا هذا الاجتماع المرغوب حتى يبرأ الوطن من علته ويسلم من دائه العضال، دمتم له يا أعز بنيه وأصدق حماته"

مصر في ١٠ مارس سنة ١٨٩٦ **مصطفى كامل**

obeikandi.com

# اضطهاد الإنجليز شقيقه

نقم الانجليز من الفقيد مجاهدته إياهم في أوروبا، لأن الدعاية في الخارج تزعزع مركزهم المعنوي الذي يعتمدون عليه كثيرًا في تثبيت سلطانهم في مصر، وقد غضبوا عليه لحملاته عليهم في الصحف الأوروبية عام ١٨٩٥، وبدأ أثر هذا الغضب في معاملتهم لشقيقه على (بك) فهمي كامل، وكان وقتئذ ضابطا بالجيش المصري بالورطة الأولى من المشاة المرابطة بسواكن، فتشدد رؤساؤه الانجليز في معاملته فقدم استقالته من خدمة الجيش في أكتوبر سنة ١٨٩٥، ولكن قومندان الأورطة الانجليزي رفض استقالته وطلب إليه استردادها متهددًا متوعدًا، فاسترد على بك الاستقالة، ثم صدر الأمر بإحالته إلى الاستيداع في شهر نوفمبر، وسافر إلى مصر فوصلها في ٥ ديسمبر سنة ١٨٩٥.

وقد رافق على بك شقيقه حين خطب بالإسكندرية، ولما عاد معه إلى العاصمة قدم استقالته من الجيش في مارس سنة ١٨٩٦، يكون بجانب أخيه في ميدان الجهاد، وان الإنجليز قد ساءهم النجاح الذي لقيه المترجم في خطبته، والحفاوة التي قوبل بها في الإسكندرية فاعتزموا أن ينتقموا منه في شخص أخيه، فاعتبروا استقالته من الجيش في الوقت الذي كانت تعد الحكومة فيه الحملة لاسترداد دنقلة مخالفة للواجب العسكري تستوجب محاكمته، ومع أنه حين علم بنبأ هذه الحملة استرد استقالته بخطاب مسجل ووضع نفسه تحت تصرف وزارة الحربية، وألحق فعلا بالأورطة الخامسة عشرة، فإن وزارة الحربية أمرت بوقفه، واعتقاله ومحاكمته، وحوكم على الفور أمام مجلس عسكري، فقضى بتجريده من رتبته العسكرية (وكان ملازما أول)، وتنزيله على درجة (نفر)، أي جندي بسيط، ونزعوا عنه علامة هذه الرتبة، وساروا به إلى الثكنة التي بها أورطته (بالعباسية)، فقوبل هذا الظلم بالأمل الشديد من زملائه الضباط، وأعربوا له عن صادق عواطفهم نحوه، فشكرهم على إحساسهم، ونصح لها أن يتبعوا الحكمة والروية، حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولا، وقد أودع السكن، وعومل بغلظة وشدة، وألحق (نفرًا) بتجريده دنقلة، فكان ذلك منتهى التعسف والتنكيل، وحضر واقعة (فاركة) وواقعة (الحفير) وهو جندي بسيط.

كان لهذا الظلم الصارخ أثر سيء في النفوس؛ وبخاصة بعد أن تناقلت الصحف والألسنة تفاصيله، وانتقل صداه إلى الصحف الخارجية، واستفاضت الأنباء بأن المقصود بهذا الانتقام هو مصطفى كامل.

وقد جعل المترجم لمسألة أخيه صبغة رسمية. فطلب مقابلة الخديو ليرفع إليه ظلامته من هذا الاضطهاد، فأجيب إلى طلبه وقابل الخديو لهذا لغرض يوم الخميس ٩ يوليه سنة ١٨٩٦، فكان لهذه المقابلة ضجة في المحافل السياسية، وبخاصة الانجليزية، لأن الإنجليز عدوا مقابلة



obeikandl.com

الخديو لزعيم حركة الجلاء مظاهرة ضد الاحتلال، وقابل اللورد كرومر الخديو في هذا الشأن، وأظهر له استياء الدوائر الإنجليزية من استقباله مصطفى كامل، فأجابه الخديو أنه ككل المصريين له الحق في أن يشكو إليه مظلمته، وأخيرًا صدر العفو عن على بك في أغسطس سنة ١٨٩٦، وقد استاء اللورد كتشنر سردار الجيش المصري وقتئذ من أمر العفو، فلم ينفذه غلا في أكتوبر، أي بعد شهرين من صدوره.

## خطبته بالفرنسية في الإسكندرية

## (١٣ أبريل سنة ١٨٩٦)

لم يجزع مصطفى لاضطهاد شقيقه، وكان الظن أنه يتراجع خوفا عليه، ولكنه ألقى وأخوه يتلظى في محنته خطبة دلت على أنه مهما حورب في شخصه أو شخص أقرب الناس إليه، فلا يحول حائل دون جهاده، ذلك أنه في إبريل سنة ١٨٩٦ طلب منه لفيف من الأوروبيين المقيمين بمصر أن يلقي خطبة يشرح لهم فيها القضية المصرية وموقف المصريين من الجاليات الأجنبية. فلبي الدعوة، وألقى بمسرح زيزينيا بالإسكندرية يوم ١٣ إبريل خطبة بالفرنسية، كانت فوزًا كبيرًا له وللقضية الوطنية فقد ازدحم المسرح بالحاضرين، وكانوا نحو ألف من خيار النزلاء مختلفي الجناس رجالا ونساء، ومنهم بعض الإنجليز، وفي مقدمتهم بعض القناصل والشخصيات البارزة من الجاليات الأجنبية وأعيان التجار، وجموع كثيرة من صفوة الوطنيين الدين يعرفون اللغات الأجنبية، وألقى المترجم خطبته بلغة فرنسية فصيحة، وصوت رنان، ولقد جاهر فيها بأن اضطهاد شقيقه لا يثنيه عن جهاده، وسيظل مدافعًا عن وطنه طول حياته، واستمر يخطب ساعة ونصفًا، كان في خلالها يقابل بالتصفيق والاستحسان والإعجاب، مما دل على مبلغ تأثيره في نفس السامعين، ومعظمهم من الأوربيين.

وكان الموقف يدعو حقًا للإعجاب، لأن تلك أول مرة بعد الاحتلال يلقى فيها خطيب مصري على جمع من الأوربيين في مصر خطبة بلغة أوروبية، مدافعًا عن القضية الوطنية، مناديًا بالجلاء، وقد ظهر هذا الإعجاب فيما كتبته الصحف الأوروبية عن الاجتماع، قالت جريدة (الفارد الكسندري): "عندما ظهر الخطيب على مسرح الخطابة قدم له جماعة من أبناء وطنه باقات كثيرة من الزهور دليلاً على حبهم له وتأييدهم لخطته؛ فكان يتكلم وسط الزهور والرياحين بلسان بديع في الفرنسية، وبأسلوب خطابي، وصوت جهوري، مما أثر تأثيرًا قويًا في السامعين"، وقالت جريدة الريفورم"إن هذا الجهاد الذي يقوم به مصطفى كامل لجدير بالفخر، فلقد أمكنه أن يتكلم فوق ساعة ونصف بلسان أجنبي عنه، دون أن يمل سامعوه ودون أن يستعمل ألفاظا نابية

عن الذوق وبرعاية وتحفظ تامين، ومن البديهي أن الذي يبلغ درجة كهذه لابد أن يكون له شأن كبير، ولقد سمعت بنفسي خصوما مجاهرين بمعارضتهم لآراء مصطفى كامل يعترفون بفضله وكفايته".

## مجموعة أعمال المترجم في عام

حفل عام ١٨٩٥-١٨٩٦ بما رأيت من جلائل الأعمال والجهود الجبارة في بعث الحركة الوطنية، وقد فكر بعض أصدقائه في طبع مجموعة أعماله في ذلك العام، تخليدًا وتكريمًا لجهاده، فنشر الأستاذ العالم محمد بك مسعود (صاحب جريدة منفيس وقتئذ) هذه المجموعة بعنوان (مصر والاحتلال الإنجليزي) ومهد لها بمقدمة بليغة تدل على المكانة التي نالها مصطفى كامل في النفوس والاعتراف له من ذلك الحين بأنه باعث الحركة الوطنية.

ظهرت هذه المجموعة في مايو سنة ١٨٩٦، وانتشرت انتشارًا كبيرًا، واقبل الناس على اقتنائها إقبالاً عظيمًا، وإنا مقتبسون هنا بعض فقرات من مقدمة الأستاذ مسعود بك لأنها تحتوي على وصف لشخصية مصطفى كامل في بداية حياته الوطنية الكبرى، قال:

"نبغ هذا الهمام من مدارس مصر، وتوج ما اكتسبه فيها من المعلومات الجليلة بمتابعة الدراسة في فرنسا، حتى نال الشهادة الناطقة بفضلة وقوة إدراكه وشدة ذكائه وحدة فهمه، وقد كان كافة أساتذته،أقرانه يعترفون له بهذه النعوت الكاملة، وبما وهب من طلاقة اللسان وقوة البيان، وأنه الذي إذا ارتقى منبر الخطابة ذلك له القول وسخر له الخطاب، وتابعه الكلام متفق القرائن مطرد السياق، حتى يستميل إليه القلوب النافرة، ويرد الأهواء الشاردة".

إلى أن قال:

"يعترف القارئ المنصف اعترافًا لا تشوبه مداراة أو مواربة بأن الموجد لهذه الحركة الفكرية القوية إنما هو ذلك الذي ينبغي أن يكافئه كل وطني بالاقتداء به وسلوك منهجه القويم، وما هذا المنهج القويم؟ هو صراط مستقيم يهتدي إليه كل من اجتمعت فيه مزية الإقدام واشتعال العواطف بالوطنية الصادقة، فإن هاتين الصفتين الجليلتين متى منح الإنسان التوفيق بتوافرهما فيه، وأوصلتاه إلى سدرة منتهى الغايات المحمودة والمقاصد السنية، وسخرتا له كل الوسائط لتذليل الصعاب وتمهيد العقبات" إلى أن قال:

"علم مما سلف أن الإقدام والوطنية الصادقة، شرطان لازمان للمصريين، إذ بهما يقاومون جميع الصعوبات السياسية كما قاوم بهما من قبل فحول الرجال الذين أنقذوا أوطانهم من ربقة الاستعباد، فخلدوا في تاريخ أممهم وتاريخ الحية الذكرى الحسنة، وتركوا للأعقاب أثرًا جميلاً ومثلاً يقتدون به، ولا بدع إذا كان المصريون الصادقون يؤملون لوطنيهم وخطيبهم المصقع منزلة في تاريخ كمنزلة أولئك العظماء في تواريخ بلادهم، فكلهم ابتدأوا كما ابتدأ، وربما كان علمهم في المبدأ لم يصادف من النجاح والفوز ما صادفه مصطفى كامل في فاتحة أعماله الجليلة التي نقدمها للقراء متضمنة كل آثاره الوطنية في عامه السياسي الأول" [1].

(١) كتاب (مصر والاحتلال الإنجليزي) أو مجموعة أعمال مصطفى كامل مدة عام من مايو ١٨٩٥ على مايو سنة ١٨٩٦ ص ٤.



obeikandl.com

## استئناف الجهاد في أوروبا

## (أغسطس سنة ١٨٩٦- نوفمبر سنة ١٨٩٦)

أبحر المترجم من الإسكندرية يوم السبت أول أغسطس سنة ١٨٩٦ قاصدًا فرنسا ليستأنف جهاده في أوروبا، فودعه على رصيف الميناء جمع كبير من ذوي المكانة، وقدم له الوطنيون الإسكندريون باقات الأزهار داعين له بالنجاح في جهاده [١]، وما أن وصل إلى باريس حتى بادر على العمل والجهاد في سبيل مصر.

فنشرت له جريدة (ليبر بارول) الفرنسية حديثًا بتاريخ ٧ سبتمبر سنة ١٨٩٦ عن الحركة الوطنية، قال فيه:

" إن كراهية المصريين للاحتلال تزداد من يوم لآخر، وقد علمنا الآن حق العلم أن انجلترا تستعمل كل الوسائط بما فيها الشرف البريطاني للوصول إلى غايتها في مصر، وليس لها من غاية هناك سوى الاستيلاء عليها، وإنه إذا كانت الأمة المصرية ساكتة اليوم سكوتًا تامًا وصابرة صبرًا جميلاً فإني لا استطيع التكهن بما يمكن أن ينجم عن حقدها الشديد على الاحتلال والمحتلين".

## ذكرى ١٤ سبتمبر

وانتهز المترجم يوم ١٤ سبتمبر وهو ذكرى احتلال الإنجليز عاصمة بلاده في سنة ١٨٨٢، فنشر في جريدة (الإكليز) الفرنسية بعدد ١٥ سبتمبر سنة ١٨٩٦ حديثًا ضمنه التنويه بهذه الذكرى، وقد مهدت له الجريدة الباريسية بقولها" أي تذكار محزن وأية ذكرى تعسة مؤلمة؟"

---

(١) جاء في المؤيد عدد ٢ أغسطس سنة ١٨٩٦ ما يأتي" "كان من جملة الذين بارحوا ثغر الإسكندرية أمس على أوروبا حضرة الكاتب الفاضل والخطيب الوطني البليغ مصطفى أفندي كامل فودعه على ظهر البحر كثير من أصدقائه وإخوانه كما ودعه الكثير منهم بعد ظهر يوم الخميس الماضي على محطة القاهرة رافقته السلامة والنجاح أينما توجه".



obeikandl.com

**مصطفى كامل في الثالثة والعشرين من عمره**

" لقد مضى على مصر أربعة عشر عامًا وهي مقهورة ومضغوط عليها من قوم يلقبون أنفسهم بممدني العالم! وإن الإنسان عندما يفكر أن الإنجليز مضى عليهم هذا الزمن وهم يهدمون كل بنيان في مصر، ويحاربون أوروبا والمدنية الأوروبية على شواطئ نهر النيل ويقوضون أركان نفوذ فرنسا واحترامها، ويقهرون المصريين، كل ذلك ودول أوروبا لم تعمل شيئًا ما ضد الاحتلال، يظن أن أوروبا هذه تلاشت وأنها لا وجود لها اليوم! وليس تذكار ١٤ سبتمبر تذكار حداد للأمة المصرية فقط، بل هو أيضًا– وأسمح لنفس أن أقول ذلك – تذكار عار وخجل على سياسة أوروبا ومدنيتها عامة وعلى فرنسا خاصة".

obeikandi.com

# خطاب ثالث إلى جلادستون

كانت المسألة الأرمنية في صيف سنة ١٨٩٦ مثار الأحاديث في الصحف الأوروبية والدوائر السياسية، وكانت الصحف الأوربية عامة تدافع عن الأرمن وتحمل على الحكومة التركية من أجلهم حملات شديدة، وان المستر جلادستون من أشد السياسيين انتصارًا لهم، فكتب المترجم من باريس خطابا ثالثًا نوه فيه بخطابه الثاني الذي لم يتلق عنه ردًا، وألمع على دفاع المستر جلادستون عن الأرمن ضد الحكومة التركية، وسكوته عن المسألة المصرية، على ما يقع فيها من عدوان السياسة الإنجليزية، ونقضها لعهودها في الجلاء، وأعرب عن أمله في أن يكون عادلاً في موقفه حيال المسألة المصرية، وهذا تعريب خطابه:

"باريس في ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٩٦.

" أيها السيد المبجل.

" إن الذي يخاطبكم اليوم هو مصري تشرف من قبل بمراسلتكم، ولما شرفتموني في شهر يناير الماضي بجوابكم الذي صرحتم فيه "أن وقت الجلاء عن مصر قد حان منذ أعوام" كتبت إليكم راجيًا باسم الإنسانية والشرف البريطاني أن تلقوا خطبة تذكرون فيها حكومة الملكة بأن هناك معاهدات بمصر يجب احترامها، فلم يصلني جواب ما، وحسبت أن رجائي لم يؤثر أي تأثير في روحكم الشريفة الكريمة.

"واليوم أرى مع الأسف أنكم لا تميلون إلا على المسيحيين من بني الإنسان، أوليس لنا حق كذلك نحن معشر المصريين المسلمين في دعواكم المؤثرة وندائكم القوى؟ أما أنا فأظن ذلك، وخصوصًا لأنكم بدعوتكم للجلاء عن مصر لا تدافعون عن حقوق أمة متمدنة معتدلة فقط، بل تدافعون كذلك عن مقام بريطانيا وشرفها.

"وإن اليوم الذي تدافعون فيه عن مصر تستميلون إليكم لا محالة كل المسلمين الذين يعتقدون الآن أن دفاعكم عن الأرمن إنما هو تحيز للمسحية ودفاع عنها لا عن الإنسانية وعلى هذا أؤمل أن تعيروا رجائي التفاتكم ورعايتكم، ومع انتظاري لجوابكم أرجو منكم أيها السيد العظيم المقام أن تتفضلوا بقبول صادق اعتباري وعظيم احترامي".

**مصطفى كامل**

obeikandi.com

## رد جلادستون

فأجابه المستر جلادستون بالكتاب الآتي تعريبه؛

"السبت ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٩٦

"سيدي العزيز

"إني لا أظن أنه قد وصلني منكم خطاب من غير أن أجيب عنه، أما إحساسي ورأي في مسالة الجلاء عن مصر فقد صرحت بهما جناب المسيو وادنجتون– سفير فرنسا في لندن إذ ذاك– إذ قلبت عن حكومة سنة ١٨٩٢ (أي الحكومة الإنجليزية التي كان يرأسها مستر جلادستون نفسه) مستعدة للمناقشة في هذه المسألة، ولكن الحكومة الفرنسية لم تجب أي جواب مدة وجودي في الحكومة، والآن باعتباره أحد الأفراد أراني مجردًا من كل سلطة تبيح لي التدخل في هذه المسألة.

" وفي الختام أتشرف أن أكون لكم العظيم الإخلاص الخاضع"

**و. جلادستون**

كان لهذين الكتابين صداهما في الصحف، إذ اتخذت منهما مادة لمناقشة المسألة المصرية وإلزام السياسة البريطانية الحجة.

كتبت جريدة (الديبا) الفرنسية مقالا جاء فيها ما يأتي:

"إن المستر جلادستون الذي كتب أخيرًا يدعو فيه الأمة الفرنسية على التظاهر بغيرة أشد مما عليه انتصارًا لمسيحي الأرمن دعاه بدوره رجل مصري للدفاع عن أمة أخرى مقهورة، وبيان ذلك أن مصطفى كامل المصري الوطني كتب إليه كتابًا يقول فيه أنهه يجرد بشيخوخته النشيطة أن تعمل لتحرير مصر وردها إلى أهلها من أيدي الإنجليز محتليها بلا حق، وإن تكن المشابهة بين المسألة المصرية والمسألة الأرمنية طريفة أكثر مما هي صحيحة، ولقد أجاب المستر جلادستون مصطفى كامل بأنه لما كان رئيس حكومة الأحرار سنة ١٨٩٢ فاوض فرنسا في هذا الشأن وأنه عرض على المسيو وادنجتون المباحثة في المسألة المصرية ولكن الحكومة الفرنسية هي التي أغلفت هذا الطلب ولم تجبه، وإننا نعلم كيف كان عرض هذه المناقشة يومئذ، ولكن الخطبة التي ألقاها المستر جلادستون نفسه في البرلمان البريطاني باعتباره إذ ذاك الوزير الأول لانجلترا تجعلنا نحكم الآن بأن حكومتنا كانت تضيع وقتها سدى لو فاوضت المستر جلادستون في هذه المسألة، ومع هذا فإذا كان المستر جلادستون لا يزال يعتبر لزوم المفاوضة ويرغب في أن تحافظ إنجلترا على عهودها وتقوم بوفائها فلماذا نراه لا يقبل رجاء مصطفى كامل بل يعتذر



obeikandi.com

عن نفسه بأنه فرد من أمته مجرد عن كل سلطة ككل أفراد الإنجليز؟ نعم إن هذا القول يعد تواضعًا ممدوحًا، ولكن هل الصوت الذي ارتفع للدفاع عن الأرمن فهيج خواطر الإنجليز غير قادر على أن يقول الحقيقة في شأن مصر؟"

## دعايته في ألمانيا

سافر المترجم من باريس في أكتوبر سنة ١٨٩٦ قاصدًا برلين ليرفع صوت مصر في ألمانيا ويكسب لها الأنصار، وهناك تعرف بكثير من رجال السياسة والصحافة، ورحبت به الصحف الألمانية واستقبلته بالحفاوة، فكتبت عنه جريدة (برلين تاجبلاط) قائلة؛ "وفد على برلين في هذه الأيام اكبر المشتغلين بأمر تحير مصر من الاحتلال الأجنبي وهو الوطني الشهير "مصطفى كامل" الذي يكتب ويخطب في أوروبا منذ عامين دائب السير والعمل والجهاد في سبيل مشروعه الشريف، والآن قد جاء برلين لاستمالة شعبها على وطنه الأسيف، ومصطفى كامل هذا، هو شاب فصيح جذاب، اجتمع به أحد محرري جريدتنا وتحادث وإياه في المسألة المصرية وكان الحديث باللغة الفرنسية التي يتقنها كل الإتقان".

وقد نشرت الحديث، وهو دفاع مجيد في حقق مصر في الاستقلال وعدم مشروعية الاحتلال، وتألم المصريين منه.

ونشرت جريدة (ذي بوست) كبرى جرائد المحافظين حديثًا آخر له في هذا الشأن، وقد نوه في كلا الحديثين بأن الاحتلال لا يضر بحقوق مصر فحسب بلل يعارض المصالح الأوربية عامة، قالت جريدة (ذي بوست) في هذا الصدد:

"تكلمنا في جريدتنا منذ بضعة أشهر عن رسالتين مهمتين تتعلقان بالجلاء عن مصر، وقلنا إنهما من قلم الوطني المصري الشهير (مصطفى كامل) ذلك الذي وهب حياته ونفيس عمره لتحير وطنه وتحرير بلاده، ولما كان يطوف أوروبا دائبًا في عمله فقد جاء برلين ليتعرف فيها على رجال القلم والسياسة حتى يطالعهم بحالة بلاده الحاضرة، لكي يقتنعوا بضرورة العمل ضد بقاء انجلترا في مصر، وقد فعل لك في الممالك والعواصم الأخرى، إلى أن قالت " لقد تعودنا أن نعتقد دائمًا أن نصراء الآراء العظيمة وزعماء المذاهب ودعاة الأغراض الكبيرة يكونون من الشيوخ الكبار السن، ولذلك دهشنا أول الأمر إذ شاهدنا مصطفى كامل المصري المتجول في أوروبا طلبًا لتحرير بلاده من نير الاحتلال الأجنبي شابًا في غضاضة العمر، ولكن لا يلبث الإنسان هنيهة حتى ينسى أنه أمام شاب، بل يحسب نفسه مع شيخ كبير حنكته التجارب والسنون الطوال، ويجده محدثه فضلا عن ذلك في كل كلمة من كلماته شغوفًا بوطنه مملوءًا غيرة عجيبة حبًا للعمل الذي هو قائم به، وحركات رأسه المملوء نشاطًا وكفاية، وبريق عينيه، كل ذلك

يدل على قوة إيمانه وأنه مستعد لعمل عظيم يحقق فيه القول بالعمل، وهو يؤدي الأحاديث مع بحرارة ما عهدت في غيره من رجال الشرق، ويجيب مخاطبه بصراحة تامة عن كل سؤال، وهو معتقد تمام الاعتقاد أنه يعمل عملاً شريفًا طاهرًا، وأنه واثق تمام الثقة بأن آماله لابد أن تتحقق، وثقته بنفسه وبشعبه واطمئنان خاطره يظهران جليًا من جوابه عن هذا السؤال:

"أي مهمة سياسية أنت مكلف إياها في حضورك إلى برلين؟

"إني مكلف من تلقاء نفسي و بواجبي الوطني بمهمة وطنية محضة يدفعني إليها الإحساس النفساني، فإني لما فكرت في الحالة التعيسة التي فيها وطني وشعرت من نفسي بأنني إنسان عليه واجبات لأرض آبائه وأجداده رأيت بعد التروي مع أصدقائي الوطنيين أن آتي إلى أوروبا، وقد مضى عليّ عامان وأنا مشتغل بعملي هذا مدافعًا عن قضية بلادي ضد الانجليز المحتلين لها برغم المعاهدات الصريحة القطعية، وأعظم التعهدات العلنية، ولقد وجدت أينما كنت معاضدة محبي الحق والعدل، وهم والحمد ليسوا بالقليل العدد في أوروبا، وإني أخاطب الأمم والحكومات، وسواء سمع صوتي الآن أو بعد الآن، حتى لو كان سماعه بعد موتي فإني عامل ما عشت لأداء واجباتي نحو وطني، وأنادي كل ذوي الضمائر الحرة من جميع الأمم للعمل لإنقاذ مصر".

## في النمسا

ثم ذهب إلى النمسا ليواصل دعايته للقضية المصرية، فوصل عاصمتها "فيينا" يوم ١٩ أكتوبر سنة ١٨٩٦ [١]، وكن وهو في باريس قد دارت بينه وبين المسيو (جوزيف بويوسكي) أحد كبار أعضاء مجلس النواب النمسوي مكاتبة في صدد المسألة المصرية أراد بها أن يجتذب النائب الكبير إلى جانب مصر، فكتب إليه كتابًا في ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٩٦ يشبه من بعض الوجوه كتابة إلى المستر جلادستون قال فيه:

"باريس في ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٩٦.

"جناب المحترم المسيو جوزيف بويوسكي

"لم أتشرف بمعرفتك من قبل، ولكني وطني مصري أعمل لجلاء الاحتلال الإنجليزي، لذلك أجد من الشرف أن أسأل بلا معرفة رجلاً حرًا مثلك اشتهر بسعة علمه وعظيم استقلاله

(١) المؤيد عدد ٣١ أكتوبر سنة ١٨٩٦.



obeikandl.com

وتمكنه من معرفة السياسة الخارجية بحذافيرها ليشرح لي رأيه هي هو نصير الاحتلال أم الجلاء؟ وما هي السياسة التي يجب أن يتبعها التالف الثلاثي؟

" ورجائي ألا تعتبروا سؤالي هذا مملاً أو مبهمًا، فإن الوطنية قوة قاهرة تدفع المرء إلى مخاطبة من لا يعرفه أو الخروج أحيانًا عن حد اللياقات، وإنكم وأنتم الذين علمتم الأمم ما هي حدود الوطنية، لابد أن تعطفوا على الوطنيين المصريين وتمدوا إليهم يد المعونة في سبيل تخليص وطن حكم عليه بالأسر والذل كاد يذهب ضحية طمع بريطانيا وتهاون أوروبا.

"وتقبل أيها العضو المبجل اجل تحيات وعظيم احترامات.

المصري المخلص

**مصطفى كامل**

فأجابه النائب بويوسكي بالكتاب الآتي:

فيينا في ١٥ أكتوبر سنة ١٨٩٦.

" سيدي

" تسألني في كتابك المؤرخ ٢٤ سبتمبر الماضي إذا كنت نصيرًا للاحتلال أو الجلاء، فجوابًا عن هذا السؤال أقول لك إني أفهم جداً أنك باعتبارك مصريًا وطنيًا لا بد أن تتألم لضياع استقلال بلادك، وإن كان يعزيك ويخفف آلامك الاعتقاد بأن الاحتلال الإنجليزي في مصر ليس إلا مؤقتًا، وأن إنجلترا لا تتعدى على القومية المصرية، وأن لك استقلالاً داخليًا تامًا وأن لك أميرًا حازمًا وإدارة منتظمة. ولكن لكي تنال أمة من الأمم حريتها يلزم أن يكون عندها بعض صفات معنوية خاصة وأولى هذه الصفات أن تكون مستعدة لأن تضحي بنفسها في سبيل الوطن.

"وقد أرشدني التاريخ إلى أن روسيا قضت أربعين عاما حتى استطاعت أن تملك القوقاز، وأن فرنسا حاربت في الجزائر حربا طويلة حتى استطاعت أن تقف مقاومة "عبد القادر" لها. ولا يزال من الصعب على هاتين الدولتين تجنيد الجنود من القوقاز والجزائر!. ومن جهة أخرى فليس لانجلترا في مصر غير ثلاثة آلاف جندي، مع أن للخديو جيشًا منظمًا عدته ثلاثة عشر ألف جندي، ولديه خمسة آلاف رجل في بوليس منظم تنظيمًا عسكريًا. فهذه الأرقام تدل على أن أغلب المصريين راضون عن الاحتلال الانجليزي!

"وأنا أعتقد أن الحرب السودانية لابد أن ترفع من شأن الجنود المصرية فتكسبهم ملكة عسكرية أهلية تساعد– وذلك ما لا شك فيه– على استكمال الصفات الضرورة لمصر حتى تنال استقلالها يومًا ما.



obeikandi.com

"وأنك تسألني أيضًا في كتابك عن رأي السياسة التي يجب أن يتبعها التحالف لثلاثي تجاه المسألة المصرية. وجوابًا عن هذا السؤال أقول لك إني افتكر أن المسألة المصرية لا تهم دول التحالف مباشرة بل إن سياستها تتوقف على ما تخطه انجلترا في المستقبل.

"هذا وأني أرجوك أن تتفضل بقبول عظيم احترامي ومزيد اعتباري.

**جوزيف بويوسكي**

وقد قابل مصطفى كامل بعض كبار رجال السياسة في النمسا، وفي مقدمتهم المسيو شلومكي رئيس مجلس النواب النمسوي وكبار الصحفيين وشرح له المسألة المصرية وجهاد مصر في سبيل استقلالها، فاكتسب عطف الكثيرين منهم نحو مصر.

ونشرت له جريدة (اكتسر تاجبلاط) حديثا قال فيه:

"إننا متألمون من الاحتلال الإنجليزي لأنه مسقط لكرامتنا باعتبارنا أمة، فضلا عن كونه جارحًا لعزة بلادنا حسًا ومعنى، فإننا أمة تقدر محبة الوطن حق قدرها، ونعلم أن بلادنا ما دامت تحت النير الأجنبي وما دمنا لا ندير شئوننا بأيدينا فلا حق لنا في أن نحسب أنفسنا أمة من الأمم التي لها حقوق محترمة، ولهذا نرغب من صميم أفئدتنا التحرر من الاحتلال الإنجليزي".

وقال عن سبيل مصر إلى الاستقلال:

"ولما كانت الأمة المصرية متألمة ولها حق التحرر من النير الإنجليزي، فنرى للوصول إلى غرضها سبيلين، سبيل الثورة والسبيل السلمي، فأما سبيل الثورة فنحن لا نريده لأننا قبل كل شيء قوم مشهورون بالدعة وحب السكنية، ونبغض المذابح والجرائم، ومن جهة أخرى فإن لأوروبا عندنا مصالح تضر بها الثورة. وإذا كنا نحترم حقوق أوروبا ومصالحها في مصر فمن المحتمل أن الأمة إذا ثارت ضلت سبيل الرشاد فلا تميز بين الإنجليز وغيرهم من الأوروبيين إذ تقول وقتئذ: "لقد تظاهرت أوروبا ضدنا بموافقتها على الاحتلال فمن الواجب إذا العمل ضدها" – لذلك أعرضنا عن سبيل الثورة الذي نكرهه بفطرتنا. وعلى ذلك قد اخترنا السبيل السلمي ورفعنا صوتنا على مسامع أوروبا المتمدنة بمطالبنا الحقيقية، وإن الساعة قد آذنت لا محالة وتحتم على أوروبا أن تعمل لجلاء الإنجليز عن مصر".

obeikandl.com

# ذهابه إلى الأستانة

# (أكتوبر سنة ١٨٩٦)

لم يكن معقولاً أن يطوف المترجم عواصم أوروبا ليكسب الأنصار والأعوان لقضية مصر، ولا يذهب إلى الأستانة عاصمة تركيا، لأن تركيا كانت في عهد الاحتلال الانجليزي الدولة الوحيدة التي كانت لا تفتأ تطالب انجلترا رسميًا بالجلاء عن مصر، وقد أنفذت إلى مصر مندوبًا ساميًا عنها وهو (أحمد مختار باشا الغازي) مهمته مطالبة الإنجليز بالجلاء، وكان مختار باشا يعلن بأنه احتجاج حي على الاحتلال فلا غرابة أن يستعين زعيم الجلاء بتركيا، كما أراد أن يستعين بفرنسا وغيرها من الدول الأوروبية على إحراج مركز بريطانيا.

قصد إذن الأستانة لأول مرة عن طريق فيينا وبودابست، فوصلها صبيحة الثلاثاء ٢٧ أكتوبر سنة ١٨٩٦، ونزل بفندق (بيرا بالاس)، وحضر بدعوة من باشكاتب المابين الهمايوني حفلة (السلاملك) وهي حفلة صلاة الجمعة في الجامع الحميدي حيث يصلي السلطان، وفي ذلك اليوم قابل السلطان، فلاطفه في الحديث وأعرب له عن إعجابه به وحسن تمنياته، وفي خلال إقامته بالأستانة أهداه هدية ثمينة وهي علبة سجائر من الذهب مرصعة بالماس والأحجار الكريمة، وموضوعة داخل صندوق صغير من الذهب والفضة، وأبدى رغبته في أن يمنحه رتبة أو نيشانًا، ولكن اعتذر عن عدم قبولها حتى لا يتهمه خصومه، وكانوا في مصر كثيرين، بأنه يعمل حبًا في الظهور ونيل الأوسمة، وقد لامه أصدقاؤه على هذا الاعتذار بعد عودته إلى مصر، وأقنعوه بألا يرفض رتبة تمنح له من السلطان، لأنهم عالمون بأن الألقاب في مصر والشرق تعظم من شأن الرجل في نظر الناس وتعلى من قدره ويزداد بها الزعيم مكانة عند العامة والخاصة، فاقتنع المترجم بهذه الحجة كما سيجيء بيانه.

أقام في الأستانة بضعة أيام، من ٢٧ أكتوبر حتى ١١ نوفمبر، اتصل في خلالها بكثير من رجال الدولة ومكاتبي الصحف الأوروبية والأمريكية الشهيرة، إذ وفدوا عليه ليحادثوه في شأن مصر والمسألة المصرية، فأفاض لهم بما لديه من المعلومات الجمة، وكان في أحاديثه الترجمان الصادق للأماني القومية.

كتب مكاتب جريدة (فرنكفور تركوريي) الألمانية بعنوان (حديث عن المسألة المصرية – مصطفى كامل في الأستانة) ما تعريبه:

" الأستانة في ٣ نوفمبر سنة ١٨٩٦

" تشتغل دوائر الأستانة السياسية الآن بمسألة تحرير مصر، وهي المسألة الخطيرة التي لا يبعد أن تظهر قريبًا في مقدمة المسائل الدولية العظيمة الشأن، وفضلا عما لهذه المسألة من الأهمية في أوروبا فإن الوطنيين الصادقين من المصريين قد أخذوا على أنفسهم المناداة بحقوقهم وإظهارها دائمًا على المسرح السياسي، وذلك مما زاد قيمتها وقد حضر إلى الأستانة منذ أيام الخطيب المصري الشهير الناطق بلسان المصريين والمترجم عن رغائبهم وهو (مصطفى كامل) ذلك الشاب الذ١ي خلق ليكون خطيب قومه، ولما وهبه الله من القوة والغيرة العجيبين ولما هو عليه، من الفصاحة المتدفقة وملكة التأثير في النفوس، وما في نفسه الشريفة من المحبة الشديدة لوطنه، لم يكد يجيء الأستانة ويزور فيها رجال السياسة حتى قوبل من كل الدوائر السياسية بغاية الحفاوة والتكريم، ومن الصعب أن يتكهن الإنسان في هذا الحين بالنتائج التي تنتج عاجلا عن عمل (مصطفى كامل)، ولكن مقابلته الرجال السياسة ذوي الحكمة والشأن في العواصم الثلاث (باريس وبرلين وفيينا) ومحادثاته لسائر الصحف الشهيرة وحضوره بعد ذلك لعاصمة الدولة العثمانية لمن الأمور التي يدرك قيمها كل إنسان، ولقد قابلت هذا الضيف الجليل وتحادثت معه طويلا في أحوال مصر والشرق فوجدته على جانب عظيم من اللطف والدعة وسعة الفكر والخبرة بكل مشكلات السياسة، وهو يتكلم اللغة الفرنسية كأحد نجباء الفرنسيين النابغين تحت سماء باريس كل ذلك فضلا عن إحاطته التامة بالعادات الأوروبية الحميدة وعدم إهماله العادات الشرقية الكريمة. وهو يقابل زائريه ببشاشة تسلب القلوب وتستميل نحوه ونحو بلاده كل إنسان، وإني أقول بكل صراحة ودهشة إن لمحادثة هذا الرجل الشهير والخطيب المؤثر لذة مخصوصة تبقى حلاوتها زمنًا طويلاً، ولا يزول تذكارها، أما حرارته في حديثه فهي حرارة غريبة صادقة يمتاز بها سكان الجنوب من بلاد أوروبا، وهي حرارة كلها وطنية صادقة وإحساسات عالية".

ونشرت جريدة (النيويورك هرالد) الأمريكية الشهيرة حديثًا آخر له عن المسألة المصرية والمسألة الشرقية، سأله فيه المكاتب– ما هي إحساسات المصريين نحو الإنجليز؟. فأجاب المترجم: "إن جميع المصريين كارهون للاحتلال الإنجليزي وهم يعتقدون اليوم أن غاية السياسة البريطانية امتلاك كل وادي النيل، ولذلك نزعوا الآن ما كان دليهم الثقة في وعود الإنجليز، وباختصار فقد تعلمنا أن نعتقد بأن لا شرف ولا ذمة في السياسة".

وسأله المكاتب:

- ما هي رغائب الوطنيين المصريين أو الحزب الوطني في مصر؟ فقال: إن الحزب الوطني في مصر هو عبارة عن الأمة بأسرها تجاه الاحتلال، فرغائبه

هي رغائبها، وأهم هذه الرغائب تحقيق الجلاء عن مصر من غير إحداث اضطراب أو أمر من شأنه تكدير الأمن العام.

ثم سأله المكاتب:

- لماذا يرغب المصريون في الجلاء والإنجليز يشيعون أنكم في ارغد عيش تحت سلطتهم؟ فقال:

إننا نعمل للجلاء أو تحرير وطننا أولا لأننا نشعر بواجباتنا وحقوقنا، ونعتقد أن من واجباتنا القيام بهذا العمل الشريف، وأن فينا من الحياة ما يكفي لتمتعنا بكل حقوقنا، أما ما يشيعه الإنجليز من أننا سعداء تحت سلطتهم فهذا كذب محض يدحضه البرهان، إذ الحقيقة أن المحتلين فرقوا مصر أحزابًا حسًا ومعنى"

أحدث هذان الحديثان تأثيرًا كبيرًا في المحيط السياسي، وذاع اسم الفقيد في أوروبا كزعيم لحركة الاستقلال المصري، وجاءته كتب كثيرة من مختلف النواحي والشخصيات البارزة إعجابًا بجهاده، وتقديرًا لفضله، فمن ذلك ما بعث به إليه الدكتور هفمان زنيفر رئيس حزب الشمال بالبرلمان الألماني إذ قال في كتابه إليه (١٨ نوفمبر سنة ١٨٩٦):

"سيدي

"إني قرأت أعمال الأخيرة وتتبعت كل خطواتك السياسية دفاعا عن بلدك العزيز، فوجدتها لم تصدر إلا عن وطني مخلص ذكي نشيط، فأهنئك بهذه المكانة التي تدهش كل من وقف عليها وعرف أن سنك هي سنك (كانت سن الفقيد وقتئذ اثنين وعشرين عامًا)، وإني أوافقك على وجوب جلاء الإنجليز عن مصر، لا لأن الألمان يكرهونهم كما يشاع عنا بلا حق، ولكن لتحقيق مسألة التوازن الدولي العام ولمصلحة قناة السويس بل لمصلحة انجلترا نفسها.

" إنا مستعدون لمساعدتكم متى كنت عقلاء، فادأبوا على الدفاع من سبيله الشرعية فكل من سار على الدرب وصل، وتقبل يا سيدي خالص احترام.

الصادق المخلص

**هـ. زينفر**

وكتب إليه كذلك المسيو كاني فورشللا النائب الإيطالي المتطرف الشهير كتابًا هذا تعريبه:

" ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٩٦

" أيها المصري المحترم

إنك بأعمالك تلفت من جديد نظر العالم على تاريخ مصر القديم والجديد، وتعيد ذكرى الفراعنة الذين حملوا قبل بني البشر تاج العلم ودخلوا جنة الصناعة. إنك لا تقل في نظري عن أي أوروبي ذي رأس كبير محنك، وربما فضلت عليك بنشاطك الفائق الذي لا يقل عن نشاط البخار، فمن باريس نسمعك وكذلك من برلين وفيينا والأستانة نسمعكم تذكر بلادك، حتى خيل غلينا أن العالم كله معك لأن مسألة مصر هي مسألة العالم كله، وخصوصًا إيطاليا التي اعتمد ملوككم الحديثون على أبنائها في الرسم والبناء وتنظيم الجند والبوليس.

"فلا تحريم إيطاليا زيارتك، فإن الأحرار يحبون على الدوام رؤية الأحرار من أي جنس كانوا، واعتقد أيها الوطني الغيور أن أبناء إيطاليا الذين درسوا الوطنية على جريبالدي وكافور ومازيني لفي أتم استعداد لمعاونتكم على حل مسألة مصر، إن لم يكن اليوم فغدًا " و ليس الغد ببعيد" وتقبل عظيم إخلاصي.

**ك. فورشللا**

وكتبت جريدة (الأندبندنس بلج) البلجيكية الشهيرة فصلا مطولا بعددها الصادر في ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٩٦ عن المسألة المصرية لمناسبة زيارة المترجم للأستانة أيدت فيها مطالب المصريين في الجلاء.

obeikandl.com

## عودته إلى مصر

## (نوفمبر سنة ١٨٩٦)

مكث المترجم بالأستانة حتى ١١ نوفمبر سنة ١٨٩٦، ثم برحها عائدًا إلى مصر فوصل العاصمة يوم ١٥ نوفمبر [١]، فاستقبله الجم الغفير من أصدقائه والمعجبين بجهاده على المحطة مهنئين إياه سلامة الوصول، شاكرين له حسن بلائه في الدفاع عن قضية الوطن.

## مكيدة للمترجم

## الشروع في تجنيده

كانت أنباء جهاد المترجم في أوروبا ترد تباعا إلى مصر وتنشر الصحف خلاصتها فيغتبط المصريون، أما الاحتلال وصنائعه فكانوا ينقمون منه رفع صوته في أوروبا ضد السياسة البريطانية، وقد دبروا له في غيبته مكيدة حاولوا بها إسكات صوته، ذلك أنهم أوعزوا إلى مجلس قرعة القاهرة بطلبه للتجنيد في غيابه، وكان يبلغ وقتئذ الثانية والعشرين من عمره، وطلب المجلس من مأمور قسم الخليفة الذي كان المترجم يقيم في دائرة اختصاصه تبليغ إعلان الاقتراع لأحد أفراد بيته، حتى إذا مضت ثلاثة أشهر على هذا الإعلان دون معارضة يكون اقتراع المترجم واجبًا، وقد سلم الإعلان إلى شيخ الحارة الذي كان منزل المترجم في دائرة عمله، وذهب هذا إلى منزله فعلم أنه غائب في أوروبا (وكان يجهل أمر المكيدة)، فآثر أن يستبقى الإعلان لديه حتى يسلمه إلى صاحب الشأن عند عودته من أوروبا، ولما عاد إلى مصر تسلم إعلانا من القسم بأن يذهب إلى مجلس القرعة بحجة أنه أصبح مفروضًا عليه الاقتراع إذ لم يبد معارضة بعد الإعلان الأول، فملا فطن للمكيدة دعا شيخ الحارة واسمه الشيخ محمد زيدان واستكتبه إقرارًا بأنه لم يسلم الإعلان الأول إلى أحد من ذويه، ثم دعاه رئيس مجلس القرعة، فصارحه بأن لاحق لهم في اقتراعه لأنه من حملة الشهادات العليا فضلا عن استعداه لدفع البدل العسكري فلم يقتنع رئيس المجلس وكتب إلى وزارة الحربية، وهذه كتبت إلى المحافظة لتجنيده بحجة أنه لم يبد معارضة في اقتراعه في الميعاد، فأبرز شهادة شيخ الحارة التي كانت القول الفصل في عدم إتباع الإجراءات التي يقضي بها قانون القرعة.

---

(١) المؤيد عدد ١٦ نوفمبر ١٨٩٦.



obeikandl.com

كان لهذه الحادثة ضجة كبيرة في مصر، وترامت أنباؤها على الدوائر الأوروبية، فأرسل مكاتب شركة هافاس تلغرافا مفصلا عنها إلى مركز الشركة في باريس هذه تعريبه:

" إن المحتلين يريدون تجنيد "مصطفى كامل" السياسي الشهير مع أن قواني البلاد تستثني من القرعة حاملي شهادة الحقوق والقادرين على دفع البدل العسكري وهو متمتع بالصفتين، وإن ما ينتحلونه من أعذار كإعلانه في غيابه وإتمام الإجراءات القانونية ليس بصحيح، وإني أؤكد للرأي العام الأوروبي أن هذه المسألة لو تمت على رغبة الإنجليز لأثارت في مصر حركة تكون نتيجتها وبالا على مصالح دول أوروبا، لأن هذا الرجل من أكبر زعماء الحزب الوطني الذين وقفوا أنفسهم لتحرير مصر وإخوانه في هذا العهد أقوياء، وغدًا سيقابل محافظة العاصمة الذي شدد في طلبه ليترافع أمامه قي قضيته بل في قضية مصر الوطنية بأسرها".

وظهرت جريدة (الجورنال اجبسيان) في صباح اليوم التالي مصدرة بمقالة في هذا الموضوع، حذرت فيها الحكومة والاحتلال مغبة هذا العمل، وقد تراجعت الحكومة أمام هذه الفضيحة، وقابل الفقيد المحافظ وألزمه الحجة واثبت له بشهادة (شيخ الحارة) عدم صحة إعلانه في غيابه، فانتهت الحادثة بالعدول عن اقتراع الفقيد، وكان للشيخ محمد زيدان شيخ الحارة الفضل الكبير في إحباط مكيدة الحكومة.

* * *

obeikandl.com

# الفصل السادس

# جهاده سنة ١٨٩٧

obeikandl.com

## مرضه ثم إبلاله

أنهك المترجم نفسه في الجهاد خلال سنة ١٨٩٦، فاستقبل عام ١٨٩٧ وهو على فراش المرض، من كثرة أعماله ورحلاته، وقد أبلّ من مرضه في منتصف يناير من تلك السنة، فوصف له الأطباء مدينة حلوان التماسًا للراحة وتبديلا للهواء فقضى بها مدة أسبوعين استجمّ فيهما صحته، وما إن عادت إليه قواه حتى عاد إلى ميدان الجهاد والنضال.

## نداؤه إلى ألمانيا

فقد وجه نداءً مؤثرًا إلى الأمة الألمانية بتاريخ ٢٧ يناير سنة ١٨٩٧ نشرته جريدة برليتر تاجبلاط) من كبريات صحف ألمانيا ولسان حال وزارة الخارجية الألمانية، شرح فيه القضية المصرية وطلب إلى ألمانيا أن تخرج من حيدتها وتناصر مصر في نضالها، وعلقت عليه الجريدة بقولها:

"إن هذه الدعوة الصادرة عن مصري وطني غيور ستزيد بلا شك في ميل ألمانيا إلى الأمة المصرية وعطفها عليها، نعم إن هناك فرقا بين ميل أمة إلى أخرى وبين مساعدتها لها مساعدة فعلية، ولكن إذا لوحظ أن رجال السياسة البريطانية لا يخشون المجاهرة الآن برغبتهم في اهتضام حقوق البوير (سكان الترنسفال) الذي هم أقرب الناس إلينا. فيفهم جيدًا كيف أن مديري السياسة الألمانية يرون ضرورة طرح المسألة المصرية في ميدان الحل ليفهموا الإنجليز أن في استطاعة ألمانيا القصاص ممن يتجاسر على إهانة كرامتها والمساس بشعورها واعتبار مصالحها السياسية وغير السياسية عديمة الأهمية قليلة الاحترام، ولذلك نعتقد أن دعوة مصطفى كامل للأمة الألمانية جاءت في حينها وصدرت في أحس وقت سياسي مناسب لها".

# رحلته في أوروبا

# (مارس سنة ١٨٩٧)

واعتزم السفر إلى أوروبا في مارس سنة ١٨٩٧ ليطوف عواصمها ويرفع فيها صوت مصر، متابعًا جهاده في سبيلها، فبرح العاصمة يوم الجمعة ١٢ مارس وأبحر من الإسكندرية في اليوم التالي [١]، وودعه الكثيرون من أصدقائه وأنصاره وكان من بين المودعين أمريكي اسمه المستر (جولدنيك) جاء خصيصا ليتعرف به لما سمعه عنه من جهاده في سبيل حرية بلاده، وكان واسطة التعارف بينهما أحد كبار الموظفين الوطنيين بالإسكندرية، فانتهز الأمريكي فرصة تعرفه به وألقى عليه الأسئلة التالية:

أولاً: هل لك أن تتكرم عليّ بإجمال السبب الذي دفعك إلى المناداة بحرية مصر؟

ثانيًا: إذا لم تستطيع فرنسا خاصة وأوروبا عامة أن تجبر بريطانيا على الجلاء فماذا تكون خطتك وخطك مواطنيك العاملين؟

ثالثًا: هل لك من حاجة في أمريكا لأقوم بها خدمة لهذه البلد الكبير المظلوم؟

فأجابه المترجم بإسهاب على أسئلته الثلاثة بما نوجزه فيما يلي [٢]:

قال في رده على السؤال الأول:

" لما كنت مصريا صميما رأيت من واجبي أن أقف قلمي ولساني على الدفاع عن أم حنون لا حياة لنا إلا بوجودها عالية الشأن سامية المقام، وغني سأبقى ابنها البار الوفي حتى آخر نفس أردده في هذا العالم".

وقال ردًا على السؤال الثاني:

"إننا نبني نجاحنا في عملنا على أمرين، الأول خارجي وهو انتهاز الحوادث الدولية، والثاني داخلي وهو نشر العلوم والمعارف بين إخواننا المصريين والتشهير بأخطاء الاحتلال الإنجليزي لنرقى بالعقول ونبغض الغاصبين إلى القلوب، وبذلك تقترب الأمة شيئًا فشيئًا

---

(١) ذكرت الأهرام ما يلي بعددها الصادر في ١٣ مارس سنة ١٨٩٧ "سافر اليوم على الباخرة النمسوية حضرة الوطني مصطفى أفندي كامل وهو مسافر توا على فيينا وسيذهب منها إلى بودابست وبرلين وباريس جريا على خطته في خدمة القطر فنرجو له كل نجاح وتوفيق في هذه الخدمة الجليلة".

(٢) نقلا عن كتاب (سيرة مصطفى كامل) لعلى بك فهمي كامل ص ٣١٧.



obeikandi.com

من الوطن حتى تلتف حوله وتصير وإياه جسما واحدًا لا قدرة لأية طائفة من الناس أو أية حكومة مهما كانت قوتها أن تعبث بكيانه أو تفضل أجزاءه".

وقال جوابا على السؤال الثالث:

" أشكر لك كثيرًا الخدمة التي عرضتها علىّ بأمريكا، أن تحلوا تلك العقدة العتيقة التي حرمت العالم صوتكم في المسائل الأوروبية [1] حتى نسمعكم صوتنا في دياركم بنفس النغمة التي أسمعتم بها العالم صوتكم يوم كنتم مثلنا ترزحون تحت النير الإنجليزي، وكذلك أؤمل غلا تشهد السماء مرة أخرى دماء البشر تجري في سبيل الخلاص من ظلام بريطانيا، وأن يكون الانجليز أبقى على كرامتهم من أن لوثها بعد تلك الإيمان والعهود الكبيرة أيدي بعض ساستهم الذين يريدون أن يسطر لهم التاريخ ما ليسوا أهلا لعشر معشاره".

فأعجب الأمريكاني بهذه الأجوبة السديدة وقال للفقيدة "بارك الله في شعب أنت منه، ولترق أمة هذه مبادئها وهذا صراطها، فاعمل ودع غيرك يعمل، فإن ما أخذ لا يرد التماسا، ولكن بالصوت العالي والنخوة التي تقلق الظالم في غدوه ورواحه، واعتقد أن الانجليز أسهل الأمم في رد الحقوق متى وجدوا من ذويها الإباء والكرامة والشمم".

قصد المترجم إلى تريستا ومنها إلى فيينا. ومكث بها سبعة أيام أتصل في خلالها بكبار السياسيين، والصحفيين، ومن هناك أرسل إلى مدام جولييت آدم كتابًا قال فيه:

" فيينا في ٢٠ مارس سنة ١٨٩٧

" سيدتي المديرة المبجلة

" أستميحك الإذن أن أكتب إليك بعد سكوت طويل، وصلت على هنا من مصر وفي عزمي أن أكون بباريس بعد جولة في بودابست وبرلين– في منتصف شهر إبريل– وليس لدى وقت يسمح لي أن أحادثك في حالة وطني العزيز التعسة إلى آخر درجات التعس، والتي ما كنا نظن أنه واصل إليها، إن الإنجليز يعملون في وادي النيل كل ما يريدون، ويرتكبون أفظع الجرائم على الإنسانية والعدل، ويسخرون أكبر سخية من أوروبا، وعلى الخصوص وا أسفاه من فرنسا، لأن خطة فرنسا في هذه الأيام قد دفعت بلا جدال الإنجليز إلى ظلمنا ظلمًا أشد مما كان، والذي زاد الطين بلة أن هذه الخطة التي كلها إخفاق وخيبة قد أضعفت عزيمة أشد الناس حبًا لبلدكم الجميل الكريم".

---

(١) يقصد مبدأ مترو الذي يقضي بعدم التدخل في المسائل الأوروبية.



obeikandl.com

# حديثه مع الدكتور رزنر

قابل الفقيد أثناء مقامه بفيينا الدكتور (رزنر) النائب النمسوي والطبيب الشهير، وحادثه حديثًا نشرته جرائد فيينا وتناقلته شركات البرق إلى جميع أنحاء العالم، وكان الحديث بمثابة أسئلة ألقاها الفقيد على النائب النمسوي، وأجاب عليها النائب في حديثه، وقد دلت الأسئلة وطريقة إلقائها على كياسة الفقيد في الدعاية للقضية المصرية وعمق أفكاره وإحاطته بالسياسة العالمية.

سأله المترجم: ماذا تكون خطتكم إذا عرضت مسألة مصر على بساط البحث؟

فأجابه النائب النمسوي بما خلاصته أن الكثيرين من زملائه أعضاء البرلمان يميلون إلى طرح المسالة المصرية على بساط البحث رغم العلائق الودية التي بين الحكومة النمسوية وحكومة الملكة فيكتوريا، ومتى طرحت نكون في جانب العدل الذي يقضي بحرية مصر ووضعها تحت ضمان الدول اجمع، لأن أهمية مصر بالنسبة لأوروبا ماثلة في قناة السويس التي ترتبط مصالح أوروبا الصناعية بآسيا المحتاجة لصناعتها، وليس لأوروبا عامة والنمسا خاصة طريق للشرق إلا قناة السويس، وعدا ذلك فإنه لا يصح أن تملك القناة دولة بحرية لأنها تخيف العالم أجمع وتصبح سيدة عليه تفعل ما تشاء وخصوًا الدولة الإنجليزية فإنه فضلا عن كونها أقوى دولة بحرية فإنها كذلك أكبر دول العالم التجارية.

وانساق الحديث على اشتداد التزاحم بين ألمانيا وإنجلترا فسأله الفقيد:

"هل يكون لمصر حظ يذكر عند قيام النزاع بين ألمانيا وإنجلترا في يوم من الأيام".

فأجاب النائب النمسوي:

"إني لا أعرف درجة الأمة المصرية من الاستعداد حتى أحكم لها أو عليها، ولكني أؤكد لك أنها إذا استمرت على ما نسمعه عنها من السير في طريق الاستنارة بضوء العلم واتحادها كتلة واحدة كان لها كل حال الفوز المأمول سواء حدثت بين الدول حوادث أم لم تحدث".

obeikandi.com

# وليمة المترجم في فيينا

# (٢٤ مارس سنة ١٨٩٧)

أراد مصطفى كامل أن يسمع صوته أكثر عدد ممكن من رجال السياسة في فيينا فأقام وليمة كبرى في فندق (متروبول) مساء الأربعاء ٢٤ مارس سنة ١٨٩٧، دعا إليها نيفا وثمانين مدعوا من النواب والصحفيين، ومنهم الدكتور رزنر المتقدم ذكره وبعد أن تناولوا العشاء وقف الداعي وألقى فيهم الخطبة الآتية:

" إن مصر أيها السادة تشكر لكم من صميم أفئدة أبنائها إجابتكم دعوة مصري منهم جاء بلادكم العزيزة أكثر من مرة واتصل برجالكم المعدودين الذين أنتم من صفوتهم سائلا بكل إلحاح وحق نصرة مسألتنا التي تنحصر في كلمتين "احتلال مؤقت لا يمكث إلا ستة أشهر وله اليوم خمسة عشر عاما أي ثلاثون ستة أشهر". إذا كان أيها السادة حبل الكذب طويلا فلابد أن يكون لهذا الطول حد، وإذا كان الكذب شعار المتمدينين فماذا يكون شعار المتوحشين المتعصبين كما يتهمنا الإنجليز، إن لي الحق أيها السادة إذا قلت إن العصر الحاضر عصر ظلم وافتيات على الحقوق لا عصر عدل وإنصاف ورد الحقوق على أهلها، إن المصريين مشهورون من قديم الزمان بالدعة والاعتدال، ولهم مآثر على العالم أجمع إن أنكرها الإنجليز فلا ينكرها التاريخ الذي هو أعدل شاهد يحكم بيننا وبين أمة ظلمت رأيتها التي أقسمت بشرفها، والتاج الذي يجب احترامه، فقدمتهما ضمانا على صدقها عندما دخلت بدلانا ووعدت بالجلاء عنها عندما يتوطد عرش الخديوية ويستتب الأمن، فها هو ذا الأمن مستتب والأمة بأسرها ملتفة حول أميرها، إني لا أطيل شرح عيوب الاحتلال فقد شرحت ذلك مرارًا، ولكني أسأل ضمائركم الحرة أن تكونا أصوات عدل في المسألة المصرية، فإننا نعترف على الدوام بالجميل لمن يؤيدنا، كما تجدون منا إلى أبد الآبدين أصدقاء أوفياء يذكرونكم بكل خير، ويمجدون فيكم تلك الروح الشريفة التي أودعتموها نفس أمير مصر [١]، ألا وهي روح الحرية واحترام إرادة الشعب، وفي الختام أكرر لكم بلسان الوطن والأمة عظيم الشكر على الود الذي أظهرتموه نحونا لتكون مصر للمصريين".

وقد رد عليه المسيو رزنر بخطبة كلها عطف وتأييد للقضية المصرية ختمها بالتأمين على كلمات المترجم، وأمل لمصر مستقبلاً عظيمًا.

---

(١) يشير بذلك إلى أن الخديو عباس تلقى علومه في النمسا.



obeikandl.com

## رحلته إلى بودابست

## (مارس وأبريل سنة ١٨٩٧)

سافر المترجم من فيينا إلى بودابست عاصمة المجر يوم الجمعة ٢٦ مارس وودعه على المحطة جميع أصدقائه ومعارفه النمسويين ممن ضمنهم إلى صف المسألة المصرية، وما أن وصل على بودابست حتى وجد في انتظاره أفراد عائلة كبيرة من العائلات المجرية النبيلة، وهي عائلة الكونت (كرونزوت)، وكانت مدام جولييت آدم واسطة التعارف بينهما، فلما نزل بالفندق استضافته هذه العائلة في دارها بضواحي بودابست وعرفته بعدد كبير من خاصة عائلات المجر وأشرافها ونبلائها، فاتصل بكثير من السياسيين والصحفيين في هذه العاصمة الكبيرة، وأوجد بها جوًا من التأييد والحب لمصر، وقد أعجب بوطنية الأمة المجرية التي يضرب بها الأمثال في قوة العقيدة والثبات في الجهاد ورحبت الصحف بمقدمه وحبته بكل مظاهر الحفاوة والتكريم، ومجدت في شخصه الوطنية المصرية.

## في برلين

## (أبريل سنة ١٨٩٧)

ثم سافر على برلين في ٥ إبريل سنة ١٨٩٧، وقابل لفيفًا من الصحفيين والسياسيين ممن تعرف بهم من قبل أو عرفهم في هذه المرة ودار بينه وبين جريدة (برلنر تاجبلاط) الشهيرة في ٧ أبريل حديث عن شئون مصر إذ سأله المكاتب عن الحالة السياسية الحقيقية في مصر.

فأجابه المترجم" "إنها حالة فوضى عامة في إدارة البلاد وقلق شديد في نفوس الشعب المصري، فقد أصبح بين المصريين وحكومتهم – كما يوجد بينهم وبين الإنجليز– هاوية عميقة جدًا، فإن حكومة بلادنا– ورجالها من صنائع الإنجليز– تعمل في مصر كل ما ينافي رغبة الأمة، فأكثر من مرة طلب مجلس شورى القوانين وهو الهيئة النيابية في مصر إجراء إصلاحات في الإدارة والتعليم، والحكومة بدلا من أن تذعن لرغبة الشعب كجميع الحكومات المتمدنة كانت تقابل بالمجلس باللوم وبكل خشونة وتجري ضد رغائبه ومطالبه، وبالعالم المؤثر في ذلك معاضدة الإنجليز، فأصبحت الأمة المصرية اليوم لا تحترم حكومتها".

وأفاض في دسائس السياسة الإنجليزية منذ الثورة العرابية إلى ما بعد الاحتلال وكانت الحرب التركية اليونانية قائمة في ذلك الحين، وجرى اكتتاب للجيش العماني في مصر، فسأله المكاتب في ذلك فقال:



obeikandl.com

" إنـه وإن كـان المصـري لا يعـرف إلا وطنـا واحـدًا وهـو مصـر فمـن الأمـور الطبيعيـة المحضة أن يساعد المصريون دولة الخلافة ويظهروا بذلك امتنانهم لها لأنها لم ترد أن تكون آلة في يد الإنجليز".

وشرح هذه الفكرة بإسهاب في مقالة نشرتها له جريدة (برلنربوست نخرختن) الألمانية قال فيها: "إن أهم معنى سياسي لاكتتاب المصريين لإعانة الجيش العثماني هو القيام بمظاهرة من الأمة بأسرها ضد الاحتلال الإنجليزي، فإن المصريين يعلمون علم اليقين أن كل دسائس إنجلترا في الشرق ترمى على امتلاك وادي النيل، وأن الإنجليز لما لم يستطيعوا استمالة السلطان غليهم ضد مصر والخديوي، أخذوا يعملون لتقسيم الدولة العثمانية آملين أخذ مصر وبلاد العرب وإعلان سيطرتهم على الإسلام كله، وسواس أوروبا لا يجهلون مطلقًا أنه يصبح من العسير علينا حل المسألة المصرية إذا اتفقت تركيا مع الإنجليز على احتلالهم وادي النيل".

## في باريس

ثم ذهب إلى باريس في إبريل سنة ١٨٩٧، فألفى في صحافتها حركة معادية لمصر لمناسبة الحرب بين تركيا واليونان، وذلك على أثر مقالة نشرتها جريدة (الاجيشيان جازيت) ونقلتها عنها جريدة (الليبرتيه) كلها طعن في الفقيد وفي الحزب الوطني، وقد عزت إليه وإلى سائر أعضاء حزبه السعي في إثارة الخواطر في مصر ضد الأوروبيين والتحريض على أحداث ثورة.

فبادر إلى إحباط هذه الحركة بكتاب نشره في جريدي (الليبرتيه) ذاتها، كذب فيه مزاعم الاجيشيان جازيت، ونفى عن المصريين تهمة التحريض على إحداث قلائل واضطرابات ضد الأوروبيين، وقد علقت جريدة الليبرتيه على هذا الكتاب بقولها:

" نشرنا هذا الكتاب ليقف قراؤنا على الحقيقة التي شوهها الإنجليز والتي تنطبق بها كلمات هذا الوطني المصرين الكبير الذي نرحب به ونفسح صحائف جريدتنا له ولكل غيور على الحق الذي نحن من أنصاره".

## عودته إلى مصر

ثم عاد إلى مصر يوم ١٢ مايو سنة ١٨٩٧ ووافقت عودته يوم عيد الأضحى وانتصار الجنود العثمانية في الحرب اليونانية.

## اقتراحه على تركيا

## اشتراط الجلاء عن مصر مقابل الجلاء عن اليونان

وقد أرسل إلى باشكاتب المابين تلغرافا بالتهنئة بعيد الأضحى وبانتصار الجيش العثماني، وأعرب فيه عن رجائه أن يشترط السلطان على دول أوروبا عقد الصلح جلاء الإنجليز عن مصر، مقابل جلاء الجيش العثماني عن بلاد اليونان، وقد كان هذا الاقتراح آية في الوطنية، إذ دل على أن قضية استقلال مصر كانت تشغل فؤاده طول حياته، وقد هاج اليونانيون القانون بمصر لهذا التلغراف، وكتبت جريدة (الفارد السكندري) اليونانية، تعليقا عليه اتهمت فيه الفقيد بكراهيته الشديدة لليونان، واستندت إلى أنه يطلب من السلطان بقاء الجنود التركية في تساليا مادام الإنجليز في مصر، فأرسل إلى جريدة (الفارد السكندري) ردًا على مقالها كتابا بتاريخ ١٦ مايو سنة ١٨٩٧ نشرته جريدة (الريفورم) دافع فيه عن موقفه، وتساءل لماذا تتدخل أوروبا في المشكلة التركية اليونانية ولا تتدخل في المسألة المصرية وقال إن الدول الأوروبية التي تريد أن تجبر تركيا على احترام رغبتها وسحب جنودها من بلاد اليونان يجب عليها أيضًا أن تجبر انجلترا على الجلاء عن مصر، وعقب على ذلك بقوله مخاطبًا مدير جريدة الفارد السكندري (وهو من كبار اليونانيين) قائلا:"هذا هو راي وهذا هو فكري، ولعله لا يرضيك، ولعلك يا حضرة المدير لا توافق على آرائنا وأفكارنا، ولكن يجب عليك أن تحترمها كما أننا نحترم إحساساتك وآراءك. فأنت ترى الأشياء من وجهة المصلحة اليونانية، وأنا أراها من ناحية المصلحة المصرية، ومن العدل أن يكون كل منا لوطنه، لا لغير وطنه".

obeikandl.com

## خطبته في الإسكندرية

وقد رأي من الصحف الأوروبية المحيلة حملة شعواء على الأمة المصرية لما أبدته من العطف على تركيا في الحرب اليونانية، فاعتزم إلقاء خطبة في الإسكندرية دفاعًا عن موقف الأمة من هذه المسألة وتوضيحًا لعلاقة مصر بتركيا.

ألقى هذه الخطبة يوم ٧ يونيه سنة ١٨٩٧ [١] بمسرح زيزنيا في اجتماع حافل حضره ألفان من صفوة القوم من الإسكندرية والأقاليم، وبعض النزلاء الأجانب، وقوبل أثناء خطبته وبعد انتهائها بالتصفيق والهتاف، وكان موضوع الخطبة حث المصريين على التواصي بالوطنية والإخلاص لمصر، ومحاربة اليأس واستثارة روح الكرامة والإباء في نفوسهم، ودعا إلى البذل والتضحية في سبيل مصر، وحض على دوام الاتحاد بين المسلمين والأقباط. وحبب إلى الشباب الإقبال على الحياة الحرة، والإعراض عن الوظائف، وأهاب بسراة البلاد وأعيانها أن يبذلوا من أموالهم وجهودهم لنشر التعليم القومي في أرجاء مصر، ونفى تهمة التعصب الديني الذي نسبه خصوم مصر على المصريين بسبب اكتتابهم للجيش العثماني في الحرب اليونانية التركية، وسوغ موقف مصر نحو تركيا قائلاً:

"إن مظاهرة الأمة المصرية نحو الدولة العلية هي مظاهرة قوية ضد الاحتلال الإنجليزي، واشتراك أفراد الأمة على اختلافهم في الاكتتاب للجيش العثماني هو اقتراع عام ضد الإنجليز في مصر".

إلى أن قال:

" نحن نسأل الذين ينتقدون اكتتابنا للدولة العلية لماذا غير الإنجليز سياستهم نحو تركيا من سنة ١٨٩٣، لماذا قاموا من ذلك الحين ضدها بعد أن كانوا يعلنون للملأ كله أنهم أصدقاؤها وأحباء السلطان؟ أليس ذلك لأن السلطان لم يرض العمل معهم ضد مصر وضد أميرها؟ أليس لأنه قدر آمال المصريين ورغائبهم حق قدرها؟ هبوا أن لا علاقة بين مصر والدولة العلية غير العلائق العادية بين الأمم، أليس من واجباتنا الوطنية أن نعترف بالجميل لدولة رفضت القضاء على حياتنا ومساعدة أعدائنا ضدنا؟ ثم ضرب مثلا بصداقة الأمة المجرية للأتراك وحبها إياهم إيواء تركيا أحرار المجر في بلادهم".

---

(١) المؤيد عدد ٩ يونيه سنة ١٨٩٧.



obeikandl.com

وبعد أن انتهى الخطيب من خطبته اقترح على الحاضرين إصدار قرار بالاحتجاج على الاحتلال الإنجليزي أشد الاحتجاج وبالإعراب للنزلاء الأجانب عن عواطفهم الودية نحوهم وأنهم لا يرغبون إلا أن يعيشوا معه في سلام، ويسألون سلطان تركيا أن يطلب من الدول الأوروبية الاتفاق على حل المسألة المصرية وتحقيق حرية مصر واستقلالها، فوافق الحاضرون بالإجماع على هذا القرار.

وقد كانت هذه الخطبة فوزًا كبيرًا للفقيد، وأسهبت الصحف الوطنية والأوروبية في وصف الاجتماع، وطيرت الشركات البرقيات نبأ الخطبة إلى الخارج، قال جريدة (الفارد السكندري) في هذا الصدد ما يأتي:" قد اندفع الناس أفرادًا وجماعات لسماع الخطبة التي ألقاها حضرة الفاضل مصطفى أفندي كامل في مسرح زيزنيا عن المسألة المصرية، فكنت ترى هذا الملهى الجميل الكائن بشارع باب شرقي يموج بالأهالي من لابسي الطرابيش وحملة العمائم مزدحمين في المقاعد والألواج أو وقوفا على القادم، جائلين بين المنافذ والأبواب، حتى كان الزحام شديدًا، فلم يخل منه مدخل التياترو، وعند الساعة التاسعة مساء حضر مصطفى أفندي كامل ووقف على المسرح، فقوبل بتصفيق شديد، وقدمت له عدة باقات من الأزهار وشاهدنا على الأخص باقة من الزهور بديعة الشكل تدل على حسن ذوق صانعها قدمت له باسم أهل الإسكندرية، ثم افتتح الخطيب موضوعه وظل يخطب ساعة ونصفًا بين تصفيق شديد كان يدوي في نهاية كل جملة، وكان التصفيق يمتد في بعض الأحيان حتى يضطر الخطيب على الانقطاع عن الكلام، أما صوته فحسن جهوري، ذو رنة قوية، لذلك كان يسمع في كل أرجاء الملهى حتى أن كل من هذا الجمع العظيم على كثرته استطاع أن يعي كل أقوال الخطيب التي كان يلقيها بعبارات فصيحة خالية من شوائب التعقيد، ثم أتت الجريدة على خلاصة الخطبة.

وكتبت جريدة (الوطن)[1] تحت عنوان (الخطباء في مصر) مقالة طويلة جاء فيها "قد انشرح كل من سمع خطاب حضرة الوطني الماهر مصطفى أفندي كامل لأنه ظهر في المصريين من هو مقتدر على الإعراب عن نوايا الأمة المصرية بالاعتدال والرزانة والحصن على مكارم الأخلاق والحث على المحبة والمسالمة، ونقلت قول الفقيد: "**إن المسلمين والأقباط شعب واحد مرتبط بالوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش ولا يمكن التفريق بينهما مدى الأبد**".

---

(١) لصاحبها المرحوم ميخائيل عبد السيد، عدد ١١ يونيه سنة ١٨٩٧



obeikandl.com

وقال المؤيد تعليقًا على تقريظ الوطن: " قد نشرنا أيضًا ما كتبته جريدة الوطن الغراء في هذا الصدد، **وهو ليس من قبيل تقريظ الخطيب بل هو إعراب حق عن حكم عقلاء الأقباط على تلك الخطبة الوطنية**".

وكتب الفقيد إلى مدام جولييت آدم يصف النجاح الذي لقيه في هذا الاجتماع ويدافع عن خطته وخطة الحركة الوطنية حيال تركيا، وقال:

" الإسكندرية في ١٢ يونيه سنة ١٨٩٧.

" سيدتي المدير المبجلة.

"لابد أن تكون تلغرافات هافاس قد أنبأتك بهذه المظاهرة الوطنية الكبرى التي كانت يوم الثلاثاء الماضي والتي ما كنت أنتظر وقوعها من مواطني لعظيم جلالها، ذلك أنه لم تكد الصحف عن الخطبة التي ألقيتها حتى جاءت الوفود من أنحاء الأقاليم للاشتراك في هذه المظاهرة التي حضرها أكثر من ألفي مصري، وقد وافقوا بكل سرور، وهو محقون في هذه الموافقة على ما عرضته عليهم أخيرًا من عدم الرضا بالاحتلال وطلب الجلاء، وإن الأوروبيين حتى اليونانيين منهم لمرتاحون إلى تلك المظاهرة وهذا القرار، إنك تعلمين خطتي نحو تركيا، وما أراه واجبا نحوها، فقد أفصحت عن ذلك في خطتي، واعترف كثيرا من أصدقائنا اليونانيين بأنه من السياسة القومية لمصر أن تكون حسنة العلائق مع تركيا ما دام الإنجليز محتلين وطننا العزيز".

و"إني لا أرتاب في أن حياة الأمة المصرية النضرة التي تجلت للعيان ستملؤك سرورًا، ولذلك كتبت إليك هذه الكلمة، وأنا أؤمل أن تتفضلي بإفراد مقالة في المجلة أو في غيرها للوطنية المصرية".

obeikandl.com

## سفره إلى أوروبا

## (يونيه سنة ١٨٩٧)

ثم سافر من الإسكندرية يوم ٢٦ يونيه على أوروبا ليواصل جهاده بها، فوصل على الأستانة يوم ٢٩ يونيه، ونزل بفندق (سمر بالاس) بترابيا على البوسفور، وقصد إليه كثيرون من رجال السياسة الأوروبيين، وفي مقدمتهم مراسلو الصحف الأوروبية والإنجليزية، وأخذوا يستوضحون آراءه في المسألة المصرية.

وبعد أن قضى أسبوعًا في الأستانة سافر إلى بودابست فوصلها في ٧ يوليه ورحبت به صحفها أحسن ترحيب.

## ذكرى ضرب الإسكندرية

وقد صادف وجوده بها ذكرى ضرب الإسكندرية بمدافع الأسطول الإنجليزي (١١ يوليه سنة ١٨٨٢) فأرسل تلغراف احتجاج على الاحتلال على اللورد سلسبري رئيس الوزارة البريطانية في ذلك الحين، قال فيه:

"بودابست في ١١ يوليه سنة ١٨٩٧.

"جناب رئيس الوزارة الإنجليزية.

"إني في هذا اليوم ١١ يوليه الذي هو التذكار الخامس عشر لضرب الإسكندرية أرى من الواجب عليّ تذكير جنابكم بالوعود التي قدمت باسم التاج الإنجليزي والشرف البريطاني للجلاء عن وطننا، وإذ كانت مصر محتلة ظلما وعدوانا ضد رغبتها وضد مصالحها الحيوية فهي تعتبر يوم ١١ يوليه هذا تذكار حداد لها وتذكار عار لإنجلترا، وما دام الاحتلال الإنجليزي باقيًا فهذا العار يحمله كل فرد من الإنجليز أمام المدنية والتاريخ والعالم أجمع". (١)

**مصطفى كامل**

---

(١) المؤيد عدد ١٩ يوليه سنة ١٨٩٧.



obeikandl.com

وقد أبلغ نص هذا التلغراف إلى الصحف المجرية، مع شرح وإيضا للمسالة المصرية، وكتبت الفصول الضافية دفاعا عن مصر وتعريفًا بشأنها في العالم.

"إنا نحن المجريين الذين توارثنا في دمائنا أبناء عن آباء حب الوطن وتمجيد الوطنية لنعطف بكل جوارحنا على مطالب المصريين ونهنئهم بوجود رجال بينهم مثل (مصطفى كامل) الذي نسميه بحق (كوشوت مصر)، ونسأل دول أوروبا كافة أن تؤازر المصريين مؤازرة فعلية بإجبار الإنجليز على الجلاء عن مصر وتركها لأهلها، لأنه من العار أن تظهر أوروبا المتمدنة بمظهر الكاذب في سياساتها أمام الشرق، إن مركز مصر ليس كمركز أي بلد شرقي آخر، فهي مصدر فوائد كثيرة للعالم، ولها مزايا فوق كل مزايا أخرى". وقالت جريدة (ما جيانوك لابجا)".

"إننا نرحب بعمل مصطفى كامل صديق المجر ترحيب الوطني بالوطني، ونقول للإنجليز إنكم تحسنون كثيرًا على أنفسكم بالجلاء عن مصر قبل أن توغروا صدور الدول عليكم إذا استرسلتم في البقاء فيها، وإن بلدًا مركز كمصر لا يصح أن يكون في يدل دولة واحدة، وأملنا كبير في أن مصلحة الدول المشتركة في مصر تحمل الحكومة الإنجليزية على الوفاء بوعودها، وإنا نعتقد أنه مهما طال الزمن على هذا الاحتلال المضر بالعالم أجمع فلا بد من جلالها يوما من الأيام، ولذلك لا يصح أن ييأس المصريون من تحرير بلادهم، مادام فيهم مثل (مصطفى كامل) الوطني المشتعل وطنية وحبًا لبلاد الفراعنة العظيمة".

وكذلك كتبت الصحف النمسوية تؤيد المصريين.

## صدى جهاده في أمريكا

تردد صدى جهاد الفقيد في الصحف الأمريكية، فنشرت جريدة (نيويورك هرالد) رسالة للمسيو سيمون المعروف بمبادئه الديمقراطية قال فيها:

" إن العالم المتمدن يسمع في هذه السنين الأخيرة صوتا رنانا وطنيا من الشرق، وهو صوت سليل الفراعنة (مصطفى كامل) هذا الصوت الذي أسمه بكل انشراح وأقرؤه بكل إمعان، ومما يدهش أن الصحافة الأوروبية عامة والإنجليزية خاصة لا تعير هذا النداء الحق ما يستحقه من التشجيع، بل بالعكس نرى أكثرها يتهمه شخصيًا بمآرب غير وطنية، وقد أردت بما أكتبه في جريدتكم المحترمة أن أكون أحد المشجعين لهذا الوطني المحبوب، وأقدم للعالم مناقشة بسيطة في المسألة المصرية، يقول مصطفى كامل إنه مصري، ونحن لا ننكر عليه ذلك، ويقول إنه يدافع عن بلاده طالبًا وفاء الإنجليز بوعودهم سائلاً أوروبا أن تساعده على تحقيق أماني مواطنيه، ونحن بإزاء هذا القول يجب علينا أن نقول (إنك صادق في دعواك ولا نسألك إلا

انتظارًا)، لأن انجلترا بمهارتها تخلق كل يوم ما يبعد عنها المناقشة في المسألة المصرية التي ليست في الحقيقة إلا مسألة الهند أولا ومسألة الشرق ثانيًا، فهذا الطريق أو بعبارة أخرى قناة السويس لم تحفر لتكون وقفًا على الإنجليز، بل لتكون طريق رحمة تجارية للعالم كله.

"خلقت انجلترا مسألة الترنسفال لتشغل ألمانيا، وخلقت مسألة الأرمن واليونان لتشغل تركيا، كما تسعى لحفر بئر لروسيا في الشرق الأقصى، وكل هذه المسائل تعطل كثيرًا عرض مسألة مصر على بساط البحث وإعطاءها حقها بين الأمم الحرة التي تتقلب في نعيم بينهما هي تعاني آلاما جسامًا.

"إن مصطفى كامل قائد حركة وطنية في مصر، فبقدر سرعة هذه الحركة من العلم والعرفان وتمثيل حالتي الوطني للناشئين (حالة الشقاء وحالة الرخاء) تقرب ساعة تحرير ذلك الوطن الجليل.

"وإذا سأل الإنجليز (مصطفى كامل) أين أسلحة مصر وبواخرها وذهبها لتتغلب أمته على انجلترا وتملك مصر؟

فالجواب عندي عن ذلك: أن بواخر مصر هي نيلها، وأسلحتها هي إرادة أبنائها، وذهبها جمال وضعها، فليتخذ أبناؤها فوق هذه المزايا من العلم دروع، ولينازلوا الإنجليز بثبات الساكن الصابر، فإن قائد السفينة في حاجة لعقل سليم وجسد سليم ليقود سفيته، وإلا فهي بغيرهما غارقة، إن الوطن بيننا نحن الأوروبيين الراقين عظيم جليل محترم، مفضل على الحياة والولد والمال، فما بالنا نحتقره عند غيرنا ولا نود ألا نحتكر العواطف الشريفة لأنفسنا؟".

وقد علقت جريدة (نيويورك هرالد) على هذه الرسالة بقولها: "إن غرض مصطفى كامل شريف. وقد قدمناه لقرائنا بلسان جريدتنا، فهو رجل إذا تكلم أسمع العالم صوته، ومن عرف أنه ليس بغني كبير ولا وزير حكومة ذات سلطن، قال معنا إنه نابغة ككل عظماء الرجال الذين يهبهم التاريخ من حين إلى حين إلى الأمم المضطهدة المظلومة ليهدوها طريق السداد؛ وأنه إذا كان المصريون إلى اليوم في نظر بعض الساسة لا يستحقون ما يبتغونه من سعادة لانحطاط مستواهم العلمي فإنا نؤكد من جديد أن مصطفى كامل الذي حادثه مراسلنا بالأستانة في العامل الماضي لا يقل علمًا عن أعظم سياسي من ساسة أمريكا وأوروبا، ولكن لسوء حظ مصر جاء في الزمن الذي بلغ فيه حب الحياة المادية مبلغًا عظيمًا فأصبحت المدافع والمدمرات تستخدم لاغتيال الحقوق لا لنصر أمة مظلومة على أمة ظالمة ولكننا مع ذلك نقول له ما قاله المسيو سيمون: "إن خطوة إلى الأمام ولو كل قرن في سبيل تحرير الوطن لخير من لا شيء"، فليسر مصطفى كامل ومواطنوه على حيث يجدون بعون الله "مصر رمسيس" سيدة مهيبة".

هذا بعض نتائج جهاد مصطفى كامل وصداه في أوروبا وأمريكا، ولاشك أن تعريف أوروبا بمصر الحديثة يرجع أول الفضل فيه على جهاده بقلمه ولسانه في الصحافة والمحافل الأوروبية، ومن يقرأ هذه النماذج من أقوال الصحف عن مصر والمسالة المصرية تعليقًا على دعاية الفقيد يدرك مبلغ الاحترام الذي نالته بفضل هذه الدعاية الكبيرة التي قام بها ذلك الرجل العظيم.

## في فيينا وباريس

مكث المترجم في مدينة بودابست حتى ٢٣ يوليه سنة ١٨٩٧، وسافر منها إلى فيينا، وهنا واصل دعايته للقضية المصرية، ثم برحها إلى باريس، فجاءها في أغسطس وبادر بإمداد الصحف والأندية بآرائه في الشئون المصرية ودفاعه عن قضية مصر، فبدأ حملته بحديث مستفيض في جريدة (الإكلير) الباريسية حمل فيها على السياسة الإنجليزية وتصرفاتها في مصر.

كان لهذا الحديث صداه في النفوس،فانبرى أحد كبار الكتاب الفرنسيين وهو المسيو (ادوار فلدوتوفل) ينتقد السياسة البريطانية في مقالة نشرها بجريدة (لابيه) تعليقا على حديث مصطفى كامل، وأيده في آرائه، وكذلك كتبت جريدة (الدبيش كولونيال) مقالة في هذا المعنى.

## خطبته بباريس

## (ذكرى ١٤سبتمبر سنة ١٨٨٢)

ألقى الفقيد بباريس يوم أول سبتمبر سنة ١٨٩٧ خطبة من أقوى خطبه الوطنية في حفلة أقامها في الفندق النازل به، دعا إليها المصريين والعثمانيين الذين كانوا وقتئذ بباريس، وبدأها بالتنويه بانتصار الجيش العثماني في الحرب اليونانية، ثم عرج بذكرى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢، وهو يوم دخول الإنجليز القاهرة، فقال مشيرًا إلى هذه الذكرى مستحثًا المصريين على الجهاد الوطني:

"هناك تذكار آخر أراه قريبًا منا وأشخصه أمام عيني مكتوبًا بحروف الحداد، ألا وهو يوم ١٤ سبتمبر المقبل، التذكار الخامس عشر لدخول الإنجليز مدينة القاهرة عاصمة مصر التعسة، نعم أرى هذا التذكار وأحسن آلامًا شديدة لذكراه، آلامًا تختلج الفؤاد وتزاحم الفرح والسرور، فالبسوا ثياب الحداد في ذلك اليوم، واندبوا حظ بلادكم التعسة، وخففوا من آلامها بالعمل لخدمتها والتفاني في سبيل خلاصها".

## الدعوة إلى الجهاد الوطني

"فمن كان وطنه وادي النيل عارُ عليه أن يسلمه لسواه، ويعيش حقيرًا ذليلاً غريبًا في بلاده، أجنبيًا في ربوعه آبائه وأجداده، ولطالما ردد الفلاسفة أن كلمة الحق تصل على آذان الأفراد والأمم وتبلغ أعماق القلوب ولو بعد قرون فنادوا إذن بتحرير الوطن المصري، فإن لم يسمع صوتكم اليوم فهو مسموع غدًا بمشيئة الله.

"ولا تطنوا أيها الأخوان أنكم تكونون أبرياء من إثم ضياع مصر إذا سكتم عن المطالبة بحقوقها ولم تعملوا لإخراج الأجنبي من ديارها، فقد يظن الكثيرون في مصر أن الذي لا يخون وطنه ولا يخدمه ولا يدافع عنه يكون بريئا عن مصائبه غير مسؤول عن الأخطار التي تتساقط عليه، كلا إن الذي يرى النار بعينه ويقف عن د حد المشاهدة فلا يعمل لإطفائها هو شريك في الإثم لمن سعرها، فكيف بناء ونحن نرى الأجنبي يعتدي على حياة أمتنا ووطنا ويهتك عرض بلادنا ويسلبنا أموالنا وحقوقنا ويستذلنا ويحسن للحيوان الأعجم أكثر من إحسانه إلينا، إلا إن الحياة الذليلة خير منها الموت، والموت في سبل الحياة الشريفة خير من حياة ذليلة".

## الشباب والشيوخ في الجهاد

ثم تكلم عن واجب الشباب في الجهاد الوطني فقال:

"وإذا كنا معشر الشباب لم نجر على بلادنا هذه المصائب الجمة فلا جرم أننا إذا أهملنا الأمر كنا الجانين على أبنائها من بعدنا، فلقد سلمنا آباؤنا مصر وفيها بقية من حياة، فهل يليق أن نسلمها لأبنائنا ميتة لا حراك فيها؟ إن مصر كعليل أنتم تعرفون دواءه فقدموه لها ولو قطّعت أيديكم بالسيوف ومزقت أفئدتكم بالخناجر، ولو ناجيتم سرائركم وتنزلتم إلى أفئدتكم وتساءلتم من المسئول عن إحياء مصر، أهم الشيوخ أم الشبان أهم الذين بلغوا غاية العمر وقضوا حياتهم، أم الذين لهم الشبيبة والقوة والحياة ونشأوا على مبادئ الوطنية السليمة وتربوا على محبة مصر العزيزة، ورأوا غيرهم من أبناء الأمم الحية يضحى في سبيل بلاده بكل نفيس وعزيز؟ لا ريب أن ضمائركم تجيبكم أنكم وحدكم أنتم، أي كل رجال الشبيبة المصرية، المسئولون عن إحياء مصر، وكفاكم من الشيوخ رضاؤهم عنكم وعن أعمالكم".

## الإشادة بالوطنية

ثم أشاد بالوطنية ودعا إلى اعتبارها فرضًا على كل مصري صغيرًا كان أو كبيرًا وضرب الأمثلة التاريخية على تعلق الأمم بأوطانها فقال:



obeikandl.com

" ولا يرينّ أحدكم نفسه صغيرًا فيقول ومن أنا حتى أدافع عن بلادي وأطالب بحريتها وأسعى لسعادتها؟ فذلك فكر خطأ، فكل مصري مسئول عن حالة مصر ولكل مصري الحق في خدمتها، بل عليه واجب إنهاضها وإعلاء شأنها، وجميع المصريين أمام مصر سواء، وحنانها لكل فرد من أبنائها لا ينقص عن حنانها للآخرين، وقد جاءنا التاريخ بالأمثال العديدة بقيام أفراد من آخر طبقات الشعب بأكبر الأعمال وأشرفها، وأرانا التاريخ فتاة (هي جان دارك) قدر حررت فرنسا وطنها وأخرجت الانجليز من ربوعه وهذا (كوشوت) محرر المجر بدأ صغيرًا لا مقام له في بلاده ولا مكانة، ولكن وطنيته الطاهرة، وفؤاده المتقد غيرة على وطنه، وخلوّه من الغرض الشخصي، جعلته في تاريخ المم رجلاً من عظماء الرجال، وقدوة كبيرة في تحرير الأوطان، والتاريخ مملوء بذكر الرجال الذين نهضوا من الطبقات الفقيرة إلى أمسى المراتب بوطنيتهم الصادقة وإحساساتهم السامية".

## محاربة اليأس

"فاعملوا إذن والأمل ملء قلوبكم، ولا تيأسوا طرفة عين، بل ليزدد عملكم بازدياد الخطر، شأن ذوي النفوس الشريفة والمقاصد العالية".

## الوطنية والحياة في أوروبا

"إني لست في حاجة لأن ألفت أنظاركم إلى ما ترونه في أوروبا من مظاهر الوطنية الجليلة، ومن معالم الحياة الحقيقية، فهذا العمران العظيم ناطق بأبدع بيان بأنه من ثمار الوطنية، وكل ما في هذه الديار من عدل ونظام، وحرية واستقلال، ونعيم عظيم، وملك كبير، وهو لا ريب من مبتدعات هذا الإحساس الشريف الذي يسوق أفراد أمة بأسرها على العمل لغرض مشترك ومطلب واحد، ولا ريب عندي أنكم كلما دخلتم مدافن عظماء الرجال وزرتم قبورهم أعجبتكم بهذه الوطنية العالي التي رفعت مقام هؤلاء الرجال وخلدت لهم الذكر الجميل على تعاقب الأجيال، لا ريب أنكم أعجبتم بهم وغبطتموهم، فلقد عاشوا كرماء أوفياء لأوطانهم، وماتوا مشرفين عالي الأقدار والمقامات، وبقيت أعمالهم دروسًا ومثلاً للأبناء والأعقاب، ولا ريب أنكم أملتم أهن يظهر في المصريين كثير من أمثال هؤلاء الرجال، حتى تبلغ مصر مبلغ تلك البلاد من عزة الكلمة وقوة البطش والسلطان.

"ولا جرم أن أنفع درس يحتاج إليه المصري من أوروبا هو الوقوف على قوة الإحساس الوطني في البلاد على اختلافها، فأهل هذه البلاد على تفرق مشاربهم وأهوائهم يحبون بلادهم حبًا شديدًا، ويستقبل الفرد منهم الموت في سبيل خدمة بلاده راضيًا مسرورًا،

"ومن أجلّ ما ذكره التاريخ عن إحساسات هؤلاء القوم نحو بلادهم أن قائدًا فرنسيًا أحس عام ١٨١٥ باقتراب منيته حينما هزم نابليون الهزيمة الأخيرة واحتلت عساكر الدول الأوروبية المتحدة أرض فرنسا، فدعا إليه أحد أصدقائه وقال له:

" إني لي عندك أمرًا أسألك بحرمة فرنسا أن تؤديه بعد موتي" فقال له صديقه "" وما ذاك فأجابه القائد: " إذا جلت العساكر الأجنبية عن أرض فرنسا العزيزة فزر قبري وناد بأعلى صوتك" "لقد جلا الأجانب عن بلادنا فنم آمنا مطمئنًا، عندئذ تسكن روحي ويتم لي الموت بسلام"، هذا مثل صغير يكفي وحده لتعريفكم كيف قامت هذه البلاد وبماذا تقوم.

"وإذا كانت فخامة تلك الأمم المتمدنة ورفعة مقامها وحرية أفرادها وسعادة أبنائها أمورًا من شأنها أن تنشطنا على العمل لتحرير مصر وإبلاغها هذا المبلغ البعيد، فهناك أمم أخرى تنذرنا بسوء المصير إذا استسلمنا للمحتلين، وأهملنا أشرف واجب علينا في الحياة، فالهند وراءكم، وأيرلندا أمامكن، تنذركم حالتهما آناء الليل وأطراف النهار بالخراب والدمار والمجاعة والعار والموت إذا رضيتم بالذل وسلمتم البلاد للمحتلين، فحاسبوا أنفسكم واسألوها: أتفضل العار على الشرف؟ والمذلة على والهوان على العزل والرفعة؟ والموت على الحياة؟".

وقد نشرت الصحف الباريسية مقتطفات من هذه الخطبة العظيمة، وكان لها صدى كبر في مصر واثر عميق في نفوس المصريين، لما احتوت من آيات الوطنية الصادقة، وترجمت عن شعور النفس العالية التي تفيض بهذه المعاني الجليلة.

## سفره إلى برلين ثم عودته إلى باريس

وبعد أن كتب الفقيد عقدة مقالات في صحف باريس سافر إلى برلين، وأمد الصحف الألمانية بقلمه مما يحتاج نشره إلى مجلدات، ثم عاد إلى باريس، وعاود الدعاية للقضية المصرية في الصحف الفرنسية.

## اعتزازه بمصريته

وفي هذه الأثناء بعث أحد أنصار الاحتلال إلى الدكتور "شيونفرت" الرحالة الألماني الشهير بكتاب زعيم فيه أن الذين يطالبون بحقوق مصر وفي مقدمتهم مصطفى كامل ليسوا من صميم المصريين، وقد كتب العلامة شيونفرت كتابا بهذا المعنى نشره في جريدة (فوسيشه زيتنغ) الألمانية في ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٩٧.

فلم يك يطلع عليه المترجم حتى رد عليه فوره بالكتاب الآتي تعريبه"

" فيينا في ٥ أكتوبر سنة ١٨٩٧

" يا جناب المدير

"اسمح لي أن أرد على ما كتبه مسيو (شيونفرت) في جريدتكم ونشرتموه في عدد ٣٠ سبتمبر الجاري في شأن الوطنية المصرية، يّدعي مسيو شيو نفرت أن المصريين القائمين بالدعوة على الوطنية هم من أصل أجنبي، وليس لهم بالفلاحين أدنى علاقة، وقد تكرم حضرته بأن عدّني من رجال الفئة المترفعة عن الأمة، البعيدة الأصل عنها، أي ممن لا يجري في عروقهم الدم المصري الحقيقي، وهي دعوى باطلة كل البطلان، لأن المصريين القائمين بالدعوة الوطنية، العاملين ضد الاحتلال الإنجليزي، الساعين في سبيل تحرير وطنهم مصريون من سلالة المصريين الحقيقيين، وأغلبهم أبناء الفلاحين، أما أنا فأفخر وأتشرف بأني بان ضابط شهم آباؤه فلاحون مصريون، يظهر إذن جليًا أننا لسنا من تلك الفئة الغريبة الأصل عن الفلاحين، ولسنا كذلك بظلمة الفلاحين في الماضي، لأنهم إما إخوتنا وإما آباؤنا، أما اكتتابنا لجيش العثماني فما هو إلا ثمرة وطنية يانعة صادقة، نعم هو ثمرة الوطنية الحقة، لأننا نعلم علم اليقين أن إنجلترا لا ترمي بكل دسائسها ضد تركيا إلا إلى مصر، وإننا بسرورنا واحتفالاتنا بالانتصارات التركية بسر ونحتفل بهزيمة السياسة الإنجليزية، أي بأجلّ وأبهى شيء يتمناه كل مصري وطني على الدوام، وإني أختم كتابي للدكتور (شيونفرت) بأني أجله أعظم إجلال، غير أني مندهش جدًا من أن رجلا مثله يقول عن الفلاح المصري إنه لا يعني بشئون بلاده، فإذا كان الدكتور (شيونفرت) يحكم علينا بأننا أجانب عن الفلاح لا ندرك ما بفؤاده، فكيف يستطيع هو أن يعرف هذا الفؤاد ويدرك ما به ويتكلم عن عدم عنايته بشئون الوطن؟ هذا وتفضل بقبول احترامي.

**مصطفى كامل**

obeikandi.com

وقد علقت تلك الجريدة على الكتاب بما تعريبه:

"إن على هذا الكتاب طابع الحق والإخلاص، ونحن لا نشك في أن المسيو (شيونفرت) قد اقتنع بما فيه. ولذلك نرجو من قرائنا أن يمحوا ما علق بأذهانهم من كتابه، فإن هذا الرد صادر من صاحب الدار، وهو أدرى بما فيها، وعلى الأخص ما يخصه منها".

## عودته إلى مصر ومرضه

## (أكتوبر – نوفمبر سنة ١٨٩٧)

عاد مصطفى كامل إلى مصر، فبلغ العاصمة يوم ١٠ أكتوبر، واستقبله أصدقاؤه وأنصاره بالحفاوة والإعجاب.

ولم يمض يومان على عودته حتى اعتراه مرض أصابه من إجهاد نفسه في العمل والكفاح، فأنهك قواه، وأقلق بال إخوانه وأنصاره فنصح له الأطباء أن يقضي الشتاء في حلوان، فعمل بمشورتهم وقصد إليها حتى أبل من مرضه في أواخر شهر نوفمبر، فعاد منها سليمًا معافى، واستأنف جهاده الوطني والسياسي، وكتب إلى شقيقه علي بك كتابا يصف فيه مرضه ويقول فيه:

الجمعة ٣ ديسمبر سنة ١٨٩٧

"أخي. لا شك أنك قلقت كثيرًا حتى بعثت بثلاث تلغرافات بعد عدة خطابات لتقف على صحتي، لأني منذ ثلاثة شهور لم أكتب إليك كلمة، إن كنت في مرض شديد، يئست معه من حياتي، وقد أصابني بعد وصولي إلى العاصمة بيومين، وهو مسبب عن كثرة المتاعب التي صادفتها في هذا العام، التي أؤمل أن تكون ناجحة لأنها كما تعلم صادرة بإخلاص، ولا أمل لي في شيء من ورائها سوى عودة مصر إلى زهوها ورجوع السيادة فيها لأبنائها المخلصين".

* * *